HABASHI

'UZAMA' MUDTAHADUN

2269
.395405
.392

2269.395405.392
Habashī
'Uzamā' mudtahadūn

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 072535535

مرزوق عنبر

عظماء مضطهدون

الطبعة الاولى

١٩٣٩

مطبعة العدل باسكندرية

Habashi, Khayri

خيري حبشي

'Uzamā' mudtahadūn

عظماء مضطهدون

الطبعة الأولى

١٩٣٩

مطبعة العدل باسكندرية

لهديه الى الاستاذ الكبير والشاعر الكبير زكي بك ابو شادي

عله ينال بعض القبول

فيه كامه شلاشه من ساحيه الادب قد لا يعجب بعض

القبيله المرخمه

ولكم عذري انا بجهود متواضع خدمه للتاريخ والحمه

وعلى اعجز بنا بعض التقصير عنه ما اكثر منه اعجاب وتقدير

الخادم

خيري حسن عبد الله

الاهداء

الى الاخوة الذين قدموا ويقدمون أجسادهم ذبيحة حية مقدسة مرضية عند الله بعبادتهم العقلية ..

الى الاخوة الذين تغيروا عن شكلهم بتجديد أذهانهم ليختبروا ما هى ارادة الله الصالحة المرضية الكاملة ..

الى كل من لا يرتشى فوق ما ينبغى أن يرتشى بل يرتشى التعقل كما قسم الله لكل واحد مقداراً من الايمان ..

الى كل من يعمل - انبوه فبالنسبة الى الايمان . أم خدمة ففى الخدمة . أم المعلم ففى التعليم . أم الواعظ ففى الوعظ . المعطى بسخاء . المدبر باجتهاد . الراحم بسرور ..... والى الذى يحب بلا رياء .

الى هؤلاء المهتمين بعضهم لبعض اهتماماً واحداً غير مهتمين بالامور (الدنيوية) بل منقادين الى المتضعين .

الى الذين لم يكونوا حكماء عند أنفسهم . ولم يجازوا أحداً عن شر بشر

الى هؤلاء الذين اذا جاع عدوهم أطعموه .. وان عطش أسقوه .

الى الاصدقاء ... ومبادىء الاصدقاء ... أصدقاء الكتاب .

الى من قوموني وقادوني بعد أن أنقذوني ... وبحنانهم وبرهم الهموني أخرج أول ثمار الالهام ؟

فيرى حبشى

65-14
2269
.395405
.392

مقدمة

بقلم

المؤلف

لا يبدأ أى كاتب في كتابه شيء . سيان كان هذا كتابا أو مقالا ومهما صغر هذا الشيء ولو كان نبذة أو شذرة . الا وكان هناك دافع يدفعه للكتابة . فكاتب يدفعه الاعواز . . يبغى من الكتابة الحصول على المادة . وآخر يحمل للأدب كل الحب والاعزاز . الاول يكتب ليشبع سغبه ، والثانى يكتب ليشبع ذهنه وعقله وروحه . وجل الكتاب ان لم يكونوا كلهم لا يدفعهم الا أحد هذين الدافعين وربما كلاهما ، ولكنى يدفعنى ما هو أمر وأنكى فما كان يدفعني الاعواز اذ كنت في فاقه وما كان يدفعنى حبي للأدب لأنى لست بأديب ، بل قل إنى على الأدباء دخيل وغريب ولكن . . . كان هناك مضطهدون ، ومفترى عليهم . مضطهدون في حياتهم وفى تاريخهم . . ومكنتني ظروفي ان أعرف أنهم مظلومون ، فعز علي ان لا أنصفهم لا من أجلهم فقط ولكن من أجل امتهم التى اضطهدوا من أجلها فظلموا وغبنوا من أجلها .

لقد كنت فيما مضى شابا يدفعني شبابي للسقوط وترفعني تربيتى الى

الاتعاش والسمو وظلمات أتخبط بين عوامل الانحلال والابلال ينزل بي الوسط وترتفع بي حصانة التربية . حتي أتيح لشخص اكتم اسمه لشعوري ان هذا يتفق مع رغبته . أتيح له ان يمد لي يد العون حتى تغلبت على عوامل الشر في نفسي ، فضاع فتوري اذ تيقظت لنفسي .. وكان اهتمامي اولا بعد صحوتي ان أحقق لنفسي المثل الأعلى الذي تبتغيه .. ولكن اليد التي تولتني بالعناية تولتني بالتقويم والارشاد .. فعلمتني ان أحب غيري كنفسي وان أحب أمتي كنفسي وان أحب أمتي كنفسي ويزيد ، وان يكون حبي لها بلا رياء .

لقد عرفوني وعلموني ، اني ان كنت أتكلم بألسنة الناس والملائكة وليس لي محبة ، فقد صرت نحاساً يطن أو صنجاً يرن . وان كانت لي نبوه واعلم جميع الاسرار وكل علم ، وان كان لي كل الايمان حتى أنقل الجبال ولكن ليس لي محبة فلست شيئاً . وان أطعمت كل أموالي وسلمت جسدي حتى يحترق ولكن ليس لي محبة فلا أنتفع بشيء اذ المحبة تتأنى وترفق ، والمحبة لا تحسد والمحبة لا تقبح ولا تحتد ولا تظن السوء ولا تفرح بالاثم بل تفرح بالحق ، لان المحبة لا تسقط أبداً وأما العلم فسيبطل وحتى النبوات فستنتهي ـ كل هذا علموني اياه ـ فدفعني حبي الذي لم يكن به رياء ، حبي لأمتي التي أحببتها كنفسي ويزيد ، ان لا افرح بالاثم بل افرح بالحق (لان المحبة لا تسقط ولكن العلم فسيبطل) ـ دفعني هذا ان أكتب لأنصف وان أكتب لأفرح بالحق وليفرح غيري أيضاً

بالحق ، هؤلاء الذين يحبون الحق ويفرحون من أجله .

فأنا أكتب لاننى أشعر أننى أكتب للحق ومن أجله .. وأنا أكتب لانني أشعر ان واجبي لأمتي يوجب على ان أنصف هؤلاء الرجال الذين زالت حياتهم ولكن لم تزل ذكراهم ولم تفن (على الاقل في قلبي) ولو عمل الكثيرون على افنائها لان كلمة الحق عند الهالكين جهالة وأما عند (محبي الحق) فهى قوة من عند الله . ولم يقعدنى عجزى ولا ضعفى لاننى اعتمدت على الله وحده واذا كان « هو » معنا فمن علينا . ولانه يختار جهلاء العالم ليخزى الحكماء وضعفاء العالم ليخزى الاقوياء .

اننى عالم ان كتابى هذا سيعجب البعض ولكن الآخر سوف لا ينال اعجابه كتابى هذا ، وبالرغم من ذلك فانى راضى عن عملى هذا لاننى وجدت ان من الواجب على ان لا أبالى في سبيل انصاف هؤلاء العظماء فقد كانوا لنا رؤساء وقد كانوا لنا حكام وقواد .... فانصافهم يكون بدافع الحب للأمه وللوطن اكثر مما هو لهؤلاء الاشخاص .

وانى لاعتبره مفخرة ان لا يحوى كتابى الا الرؤوس الناضجة ، الرؤوس التى حيرت العالم من فرط الذكاء وفرط القوة . فأنا أحمد الله اذ أعطانى ووفقنى . لم يعطني علماً بقدر ما أعطانى من قوة عقيدة وعزيمة ولم يوفقنى الى فخر بل وفقني الى حقيقة .... اذ أنه مكتوب من يفتخر فليفتخر بالرب .

كما انه لا يسعنى وانا مغمور بفضل حضرات الاساتذة والبكوات :

الاستاذ	ملك بك حنا عبيد	ناظر المدارس المرقسية بالاسكندرية
الاستاذ	سلامه موسى	صاحب المجلة الجديدة
الاستاذ	توفيق حبيب	الصحافى العجوز
دكتور	امين روفائيل بقطر	
دكتور	صادق انطونيوس	

وغيرهم من حضرات الافاضل الذين مدونى بمعلوماتهم القيمة في اخراج هذه التراجم مستوفية تماما فلهم منى أجزل الشكر أسطره على صفحات الكتاب اذ عجزت عن ايفائهم حقهم بلسانى .

والله المقوى المعين ؟

غاية الثقافة
ان نجعل الانسان انسانيا

بقلم الاستاذ الكبير سلامه موسى

« انى أعده شرفا كبيرا لكتابى اذ أفتتحه بهذه النبذة القوية لزعيم الثقافة الاستاذ الكبير سلامه موسى وهى احدى مقالاته التى تعبر عن خلقه القوى كما انها تعبر عما ينفق مع فكرة الكتاب »

هذه هى الحكمة التى قال بها الأديب الالمانى توماس مان ونحن هنا نحاول أن نشرحها ونستخرج مغزاها أو مغازيها .

وقد يقال ان الانسانية هى صفة الانسان فليس هناك معنى لان نجعل الانسان انسانيا . ولكن هذا التحليل هو للظواهر فقط ، لاننا نعرف جميعا ان كثيراً من الناس لا يزالون بعيدين عن الانسانية وفي لغتنا كلمة مروءة وهى المصدر من المرء ، ومع ذلك ليست المروءة من الفضائل العامة بين الناس ، بل الواقع أنها أندر الفضائل وأشقها فى التحصيل .

وكذلك الانسانية من الفضائل الشاقة لا يحسن تحصيلها الا الرجل المثقف لان الثقافة تعرض له تاريخ الانسان وجهوده الماضية والحاضرة

وارتفاعه الى الشرف وانحطاطه الى الخسة . تعرض قسوته ورحمته وقبحه وجماله ، وعدالته ومظالمه وذكاءه وتعرض له موكباً زاخراً بالمجاهدين والابطال من أجل الحرية والحق والشرف ، أولئك الذين اكتشفوا واخترعوا ليس فقط في العالم المادى بل في العالم المعنوى ، فى الآداب والفنون والعقائد والفلسفات .

والرجل المثقف يشعر أنه قد اندمج فى هذا الجهاد ان لم يكن بالعمل فبالروح والقلب . ويرى أن الثقافة قد غرست في نفسه مزاجاً يجعله انسانياً يكره القسوة والاستبداد ويمالىء الرفق والحرية ويعجب بالذكاء ويألم من الغباء ويطلب الصحة بألوانها صحة الجسم وصحة العقل وصحة الضمير . ويحب النظام ويكره الفوضي ويستهويه الجمال ، جمال المرأة وأيضاً جمال الزهرة وجمال الفكرة وجمال الفن .

والرجل المثقف لا يطيق القسوة وهو يكره تعذيب الحيوان قبل الانسان لانه يعامل الحيوان بالانسانية التي غرستها فيه ثقافته ، ولذلك أيضاً هو لا يطيق التفكير في الحرب أو الايمان بالديكتاتورية أو التوسع الامبراطوري وعنده من انسانيته ما يحمله على الرفق والرحمة ليس في معاملة الناس بل في معاملة المجرمين وليس في النظر الى الاخوان والزملاء بل فى النظر الى الخصوم والاعداء .

والرجل المثقف هو الذى يقيس الاشياء والناس بالقيم الانسانية ، فالشيء أو الشخص لا يكون خطيراً عظيماً لان له قيمة اقتصادية أو حربية أو سياسية وانما لان له قيمة انسانية . والامة الفاضلة هي تلك التى

شيء لنفهما نظاماً يجعل للقيم الانسانية المكانة الاولى والغاية المقصودة من نشاط الافراد وجهدهم بحيث يتجه كل شيء نحو توفير الذكاء والجمال والنظام والصحة .

وليست الثقافة مجموعة من المعارف قد حشدت فى الذهن أو أودعت فيه كأنه خزانة من الجماد بل الواقع ان مثل هذا الحشد أو الخزن غير ممكن لان الذهن جسم حى وهو يتفاعل مع المعارف التى يدرسها ، ثم هو بقدرته على النسيان يستطيع ان يأخذ ويرفض . وقد يبدأ الانسان فى ميدان الثقافة مضطرباً يتخم ساعة ويقحط أخرى ولكنه عندما يتقدم يهتدى الى الطريق ويرى نفسه وهو ينمو فى انسانيته بنمو ثقافته لانه وهو يتفاعل مع المعارف المختلفه انما يتفاعل مع الحقيقة مع أساليب ومواد التفكير الانسانية في مدى الآلاف الستة أو السبعة من السنين الماضية ، وهو بذلك يكتسب بصيرة للمستقبل هى بصيرة الحكمة الانسانية القائمة على تعرف الماضى ودرس الحاضر ، لانه قد وقف على مأساة الحياة البشرية وتورطها فى الاخطاء الكثيرة كما وقف على انتصاراتها القليلة فى الاكتشاف والاختراع . ففى نفسه مجهودها الشريف نحو الانسانية وفى نفسه آلامها الكثيرة الماضية . بل فى نفسه هذا الحزى العميق للمظالم المتعددة التى وقعت ولا تزال تقع بالناس وهو يعد نفسه مسئولا عنها لان الثقافة قد غرست فيه كبرياء تجعله يشعر كأنه وكيل عن الانسانية فهو يحزي من فضائحها الماضية ولكنه يجدوا على المطالبة بالاصلاح لكي يبرأ من هذا الحزى اذ هو خلقه فى السلسلة الطويلة لمكافحة هذا الحزى .

عندما أقرأ ما كتبه « المصرولوجى برستد » فى فجر الضمير أشعر بهذه المأساة الانسانية فانه يصف هذا الكفاح البطىء الذى قام به المصرى الاول من أجل الحق والحرية والعدل والنظام لكى يمحو عن نفسه عناصر الحيوانية فهناك قصة الفلاح الذى اعتدي عليه فى الفيوم ونقاشه مع المدير . وهناك لفظة « ماآت » التي تدرجت في المعانى الى ان أصبحت تعني الشرف والمروءة وهناك الفضيلة التى تبدأ أولا بحب الابوين ثم تنتهى الى حب البشر . بل هناك هذه الفكرة المؤلمة فكرة اليأس والامل معاً فكرة « ابن الانسان » الذى يأتى (من عالم النور الى عالم الظلام) لكى ينقذ البشر من الاستبداد والمستبدين . وهناك ميزان المحاكمة تنصبه الآلهة في العالم الآخر لكى يقوم الاخلاق في هذا العالم الحاضر .

فاذا انتقلنا من مصر الى أمم الشرق فاليونان فالرومان رأينا هذا التقدم البشري يصطدم بعقبات من الجشع والانانية والقسوة والجهل والفوضى لان وسائل الثقافة ضعفت فمرض الضمير ونقص مقدار الانسانية في الانسان ثم زاد النقصان حتى وصل الى درجة العدم فى القرون المظلمة حين عمت الجهاله جميع أفراد الامة ملوكا وسوقه فاذا كانت النهضة الثقافية فى اوربا تبعثها خميره عربية من ناحيـــة الاندلس هب الضمير الانسانى وأخذت الثقافة بحظ جديد يغرس فى النفوس نزعات جريئة الى الجمال والحق والشرف والنظم .

الجلة الجديدة العدد ٢٤٢ .

ثم نرى بعد ذلك ثورات متوالية هى ثمار الثقافة الجديدة التى جددت النفوس وأرادت الانسانية بالانسان . فالناس يكتشفون ويخترعون . يكتشفون اميركا ويخترعون «حقوق الانسان» للثورة الفرنسية ، ويكتشفون القطار ويخترعون الاشتراكية ، ويكتشفون قواعد الطبيعيات أو قوانينها ويخترعون عصبة الامم .

ولكن ماذا أقول هل عصبة الامم قائمة أم نائمة ؟

لقد قال رجل مثقف آخر هو (ولز الكاتب الانجليزى) انما يجب ان نصل الى تحقيق خيال الحكومة العالمية ان نجهز الناس فى جميع الامم بالجهاز الذهنى بأن تؤلف موسوعة تحشد فيها جميع المعارف وتترجم الى جميع اللغات حتى ينشأ الناس وهم على مقدار سواء من الثقافة تغرس فيهم نزعات متوافقة تجعلهم يؤمنون بقدرة الانسان على ان يكون انسانياً قبل ان يكون مصرياً أو انجليزياً أو صينياً قد سلخ عن نفسه ذلك الكساء الحيوانى كما يسلخ الثعبان جلده . وعندئذ يتخلص من تلك النعرات التى يصرخ بها فضاء هذه الكرة كأنها نعيب الغربان على الحضارة القائمة .

مصر المضطهدة

اذا كان كتابي هذا لم يحو الا تراجم العظماء المضطهدين والعظماء المفترى عليهم ، الذين لم يضطهدوا الا من أجل خدمات أدوها لامتهم ، بل واستماتهم فى سبيل الامانة التى يحملونها في اعناقهم لهذا الوطن ، وفي سبيل الواجب غير مبالين بأى اضطهاد أو ظلم .

فالاحرى بنا ان نستعرض شيئا من تاريخ تلك الامة التى انجبت هؤلاء العظماء فاضطهدوا من أجلها . ولا سيما ان هذه الامه نفسها مضطهدة مظلومة ومفترى عليها . فالاضطهاد والظلم الواقع عليها كان فى شخص أبنائها ، وحملة أبنائها ، فهم لم يحملوه الا من أجلها كما ان الافتراء وقع على تاريخها . فان كنا عملنا على انصافهم فالأولى انصافها ، فانصافهم انصافا لها وانصافها انصافاً لهم .

فهذا الباب ليدل دلالة واضحة على بطلان الصورة الزائفة التي يضعها مؤلفو الغرب ومؤرخو التاريخ عن مصر . فالواقع ان تاريخ مصر لم يكتب حتى الآن من مؤرخ منصف يبغى الحقيقة فيما يكتب أو يبغى العلم الصحيح ، حتى ما يتعلق بالعصر الفرعوني لولا الشواهد والأدلة المدونة على الآثار الباقية لترغمهم على الاعتراف ببعض مما ينكروه . أما العصور التى تلت ذلك فقد شوه تاريخها الساسة الاجانب لمآربهم الخاصة منذ القدم :

وكان أكبر المشوهين هم العرب الذين خلفوا الرومان في حكم مصر وتلاهم الاتراك فالفرنسيين فالانجليز ولا سيما الاخيرين الذين كانوا يستدلون بحكم مصر من الفرس ثم اليونان ثم الرومان ثم العرب ثم الترك ثم الانجليز. دليلا على ان هذا الشعب لا يعرف لنفسه كرامة يضحى في سبيلها ولا يقدر للعزة القومية معنى يثور من أجلها.

ومع الاسف الشديد، بل وملىء قلبي أسف أصرح ان هذا هو التاريخ الرسمي الذي يدرس لاطفالنا بعد ان درس لنا في مدارسنا المصرية.

وانني لا تهز الفرصة كي أنادي هؤلاء الذين يحملون لوطنهم ولو ذرة من الاخلاص الى متى يكونون مخالب قطط والى متى يرضخون للسياسة الاستعمارية بتلقين اخوتنا واطفالنا تاريخاً ممسوخاً مشوهاً.

ليتأمل القارىء العزيز في الاتهامات التي صبوها على رأس مصر وليرو أحقيتها من الصواب.

* * *

فرأس الاكاذيب على مصر وعلى الاخلاق المصرية أنها لم تكن في يوم من الايام بالقوة التي تحكم فيها نفسها أو تبالي غارة الاجنبي عليها وساعد على لصق هذه التهمة الاسباب الآتية:

(١) ان مصر كبقية الامم الاخرى كان أفرادها خليط من سكانها والنازحين اليها من الامم المجاورة أو الامم الغازية أو أسرى الامم المهزومة لذا فقد كان هذا الخليط لا يبالي ان كان محكوماً من أبناء البلاد أو من غير أبنائها لوقوع الظلم عليه في الحالتين.

(٢) ان تاريخ مصر كان أنصع من غيرها حتى استلفت أنظار غيرها من الامم فلما ان اعترتها نكسة الضعف ظهر رد الفعل في الاذهان المشغولة بذكرها فتشوه تاريخها .

(٣) ان أبناء مصر لم يحفلوا بتصحيح ما يقال عن وطنهم لجهلهم بخطر الدعاية التاريخية وأهميته ومبلغ الحاجة اليه .

واذا كنا قد فحصنا هذه الثلاثة وغيرها كثير فلنرى كيف ان هذه التهم لم يكونوا على حق من نشروها ولصقوها بمصر .

(١) ان مصر لم تكن تصبر على الحاكم الا الى امد محدود وسكوتها على الظلم كان له زمن محدود يتوقف هذا على مقدار الظلم الذي يرتكبه ولم تكن هناك قوة في الوجود تحول دون ثورة الوطنيين الاصليين بالرغم من الاجانب الممتزجين بهم . وعندما رأى الوطنيين افضال حكم الحق حكم المصلحة للمحكومين تمسكوا به وبطلت فكره الغالب بقوة السلاح أو المال ومن هنا نشأت الفكرة الوطنية بمعناها الحديث .

(٢) انه ما من دولة واحدة فى العالم حتى انجلترا وفرنسا والمانيا وايطاليا ، لم تخلص ولم يخلص تاريخها من حكم أجنبي لها دخل اليها دخول الظافر القاهر أو دخول الصديق المتودد .

(٣) ان حكم الاجانب لمصر كان له ميزة ترفع من شأن مصر بين هذه الامم التي ترميها بدائها وهو ما من حاكم أجنبي حكم مصر الا وانتحل دينها واتخذ عاداتها ومراسمها ويحفظ ماله في عاصمتها وفى أرضها للعمل على مرضاتها وحذراً من جموحها وانقلابها . ولنا من « دارا » مثلا بارزاً

فانه لما لاحظ ان المصريين الوطنيين يأبون حكم مندوبه « ارياند » حضر الى مصر وعمل على مرضاتهم حتى أنه قتل « ارياند » هذا لغطرسته التي كادت ان تلهب الثورة وتستفز الشعور ، بل بالغ في تملق الشعب حتى بنى لهم معبداً « لآمون » واشترك فى موكب الحزن على العجل المقدس « هابي » واكتتب بما يقرب من ٢٥ الفاً من الجنيهات لمن يعثر على عجل آخر حسب الشروط التى دونها الكهنة المصريين ولكن كل هذا لم يكن مبرراً لطلبه اقامة تمثال له بجوار تمثال (رمسيس الثاني) في معبد « فتاح » بل رفضوا رفضاً باتاً مقاومين اياه وهو الحاكم المتسيطر فأذعن الكبرياء رعاياه المغلوبين منه .

كما انه لا يجوز لنا اعتبار مصر محكومة من دول أجنبية لان حكامها ليسوا من دماء مصرية صميمة الا اذا اعتبرنا ان الامبرطورية البريطانية فى كل عظمتها الحاضرة محكومة من دولة أخرى لان جلالة امبراطورها الحالى ليس من دم انجليزي أصيل . وكان لنا أن نعتبر أن فرنسا أيام نابليون كانت محكومة من كورسيكا الايطالية كما أننا لا ننسى أن أكثر ملوك أوربا الآن ليسوا من دماء ممالكهم الصميمة فليس هذا دليلا على ان كل ممالك أوربا غير مستقلة الآن . وليست كل هذه الممالك الآن أكثر حرية واستقلالا وعظمة من مصر في أكثر العصور التى تعاقبت عليها .

بل ومما يزيد اثباتاً للعزة القومية ان اليونانيين كانوا ينقمون على المصريين الترفع والشمم ونظرتهم للاغريق جميعاً نظرة من هم في الحضيض الادنى من مراتب الشعوب .

ومن هنا أيضاً الصقوا بالمصرى تهمة كرهه للجندية وفي هذا الامر تأمل قليلا في قول الاستاذ العقاد فى (الطبيعة المصرية فى اوهام الناس)(١)

« ان اليونانيين كانوا ينقمون على المصريين ويشعرون بنفورهم لانهم أعانوا الحكام الغاصبين عليهم ودخلوا زرافات زرافات في الجيوش المرتزقة التي كان أولئك الفراعنة يستعينون بها على حراسة عروشهم واخضاع رعاياهم . وكان اليونانيين يزعمون بطبيعة الحال ان الحكام يتخذون الجيوش المرتزقة من الاجانب ومن اليونان خاصة لان أبناء البلاد لا يصلحون للحرب ولا يصبرون على مضانك الجندية . أما الحقيقة فهى ان الحكام الغاصبين علموا بغض الوطنيين لهم وتربصها بهم وتحفزها للثورة عليهم فخافوا ان يسلموا زمام القوة العسكرية الى تلك الرعية واصطنعوا الجند الاجانب ليتقوا بهم خطر الثورة وبوادر الفتنة ، وبلغ الخوف بهم أشده في عصر الغزوة الفارسية فأكثروا من جند اليونان وأقلوا من التعويل على جند البلاد . على ان استخدام المرتزقة خطة لم تنفرد بها مصر لانهم كانوا يستخدمون فى جيوش فارس وساموس فى هذه الفترة بعينها . فليس من الانصاف ان يكون وجودهم في الجيش المصرى دليلا على نقص كفاءة الجندى المصرى لان حديث المؤرخين اليونانيين انما هو حديث موتور ودفاع دخيل ممقوت . علاوة على ان التاريخ مليء بما يدل على عظمة الجندى المصري وتفوقه على كل جنود العالم قاطبة » (انتهى حديث العقاد) .

(١) كتاب سعد زغلول لعباس العقاد .

ولنقدم مثلا مما جاء بتاريخ مصر أولا ان « كورش » مؤسس دولة الفرس وفاتح الامصار ومدوخ الدول والشعوب تهيب ان يقدم على غزو مصر فتركها وشأنها (١) بالرغم من تحالفها مع أعدائه متحملا صفعها له بتأليبها البابليين والليديين والاسبرطيين لحارب بابل واسبارطه ولم يجسر على ان يحارب مصر .

وها مثلا آخر ، فان قمبيز مع تهجمه وفتوته لم يجسر على مقابلة الجنود المصريين وجهاً لوجه فاعتمد على خيانة « فانيس » اليونانى الذي رشا البدو القادمين في صحراء سينا . ثم لم يكفه هذا حتى الب الاسيويين وجمع منهم ستة أضعاف الجنود المصرية ثم أغرى الطاغيه الساموسى « بولكرات » ليميل اليه بأسطوله وبعدده الحربية الحديثة .

بل اننا اذا استشدنا بأجانب لوجدناهم أكثر انصافاً . فقد كتب « مستر جريفز » مندوب صحيفة التيمس في استعراضه لحالة الجيش المصري وشجاعة جنوده اذ يقول « لاريب ان المغامرين الترك والاوربيين احتكروا القيادة ولكن الجزء الاكبر من الجيش وهو الجند والضباط المصريين هم الذين هزموا الجيش الانجليزي المنظم سنة ١٨٠٧ ثم فتحوا السودان وساروا شرقاً وغرباً محرزين النصر فغلبوا صحراء العرب وكسروا شوكة الوهابيين وكادوا يقضون على السلطنة العثمانية لولا الدول الاوربية التي تدخلت » . بل ويشهد أحد الضباط اليابانيين الذين زاروا مصر بعد الحرب العظمى بأن المصريين أمة مقاتلين لو أحسنت قيادتهم

(١) كتاب تاريخ الحضارة المصرية لمسيو جستاف جيكفيه .

لدوخوا العالم . وهذه شهادة رجل حربى خبير من أمة حربية كبيرة (١) .

* * *

ان فى كل هذه الامثلة وغيرها ما ينفى ظلم المؤرخين لمصر لاصقين بها كل تهمة . لافتين نظر القارىء الكريم الى ان هذه الحوادث نقلت الينا عن اليونانيين أنفسهم وليس من المعقول ان يلصقوا بنا فضائل ، بل المعقول ان يمسخوا ويزيلوا .... ان لم يعدلوا ويمحوا .

ومما زاد تاثر هذه الاقوال وجود دولة الاسرائيليين الى جانب مصر فى الشرق . وأمر الاسرائيليين فى مصر معروف معلوم فقد اضطهدوا وعذبوا وسخروا تسخير العبيد حتي أتيح لهم ان يخرجوا بقيادة موسى وهارون . خرجوا كارهين متمنين لمصر الهزيمة حاقدين عليها . متلقين كل كل خبر سيء عنها بالبشر والترحاب . فرحين لكل ما يبشر بزوال مجدها وأفول نجمها . وزادهم بغضاً على بغض أنهم استعبدوا بمصر على البابليين فلم تنجدهم لانه لم يكن هناك دافع لتحارب من أجله متذكرة ان الاسرائيليين خرجوا على طاعتها . فركتهم لبنو خذنصر فسبي أهلها وخرب ممتلكاتها فراحوا يتمنون لها مثل ما أصابهم بل وراحوا هم ينقلون عنها كل المساوىء لاصقين بها كل التهم .

بل ومما زاد هذه المفتريات رسوخاً خلط عامة المسلمين في تاريخ الفراعنة أو ظنهم ان كل فرعون هو فرعون موسى الموسوم بالكفر

(١) كتاب لا بد لليابان من حرب انجلترا لمؤلفه الضابط اليابانى توتا اشيمارو .

والطغيان فى سور القرآن فأصبح اسم كل فرعون اسما مكروهاً ممقوتاً مرادفاً لاسم الفرعون المنبوذ . وأصبحت سلالة هذا الجنس (المصريين) فى وهمهم غير مستغرب فيهم قدح قادح .

وجاء في كتاب العقاد عن « سعد زغلول » ما يأتى :

« ثم جائت العصور الاخيرة والمصريون لا يسمعون عن أنفسهم الا التشهير بهم وسوء القالة عليهم وتفسير التاريخ على الوجه الذى يريده لهم أعداؤهم والطامعون فيهم . فالاوربيين نظروا الى المشرق نظر المستعمر الطامع الى الغنيمة المطموع فيها . فوصفوها فى ماضيها وحاضرها بالصفات التى يحبونها ويتمنون دوامها ، وهم لا يحبونها مستقلة ولا أهلا للاستقلال ولا يحبون لانفسهم ان يكونوا ظالمين مغتالين يقتلون روح الحرية ويحكمون بالذل على أناس يستحقون العزة والكرامة فليس مما يشبع مطامعهم أو يريح ضمائرهم ان يتصف الشرق بصفات الحرية والسيادة وانما يشبع مطامعهم ويريح ضمائرهم ان يتخيلوا الشرق مفطوراً على الخضوع مطبوعاً على الاستسلام » (انتهى ما كتبه العقاد) .

* * *

على انه ما يعنينى قوله هنا ان مصر لم تجد منصفاً لتاريخها في القديم ولا فى الحاضر لانها لم تجد المؤرخ الذى يضع تاريخها على طريقة علمية صحيحة وان كانت هذه المقدمة قد أثبتت خطأ الصورة المشوهة وبطلان الزيف الذى يضعه مؤرخو الغرب لتاريخ مصر فلعل ذلك يكون حافزاً لكتابنا على ان يراجعوا ضمائرهم أمام الله وأمام أوطانهم ويهتمون بوضع كتب

تنقذ عقول أطفالنا من هذا الزيف الذى راينا منا من يصدقه ولا يتحرج من تلقينه على هـذه الصورة لصغار الابناء . بل وجدنا منا أيضاً من زاد به الاجـرام حتى شوه أكثر مما شوهوا هم . أو الف خصيصا ودس في مؤلفاته ما يؤكد هذا التشويه ، فـكان منا وهو علينا ويا ليته ما كان منا .

وسنرى فى الصفحات التاليـة تراجم أكثر الزعماء ظلماً أو اضطهاداً وافتراء عليهم . كيف انهم كانوا أبرياء ولـكن ما أصابهم كان مما أصاب وطنهم وما أصـاب وطنهم لحق بهم . فها قـد رأينا كيف كان هذا الشعب أبياً شجاعاً ذكياً فاتهم بالجبن والخنوع والغباء ، وسنرى كيف خرج من صلب هذا الشعب رجالا يعدون أمثلة كاملة بالرغم من الارادة الاجنبية التى شائت فاتهمت ثم سخرت بعض العاقين من الابنـــــاء على الآباء . ولعـلى أوفق في عرض الصورة الرائعة التي تختمـر في ذهني والله يعطى التوفيق من يشاء .

مولد مصر الحديثة

ان مصر الحديثة كأمة لم تولد الا بعد الحرب العظمى . ولكنها كدولة تحكم نفسها بنفسها كانت ولادتها أثر خروج نابليون من مصر . فما لا شك فيه ان ظلام حكم المماليك في مصر كان يعمى أبصار المصريين . حتى أتيح للحملة الفرنسية ان يغريها سكون الوادي فتقتحمه . وكان أثر هذا الاقتحام تحطيم سلاسل الظلم والجهل وعند رجوع الحملة الى فرنسا لم تترك لنا سلسلة من الحصون والقلاع والمدافع بل كانت آثار الحملة ديوان للمشايخ العشرة ومطابع ونظافة وتنظيم ، بل كان الاثر النفسي أهم وأعظم فقيام الثورة ضد الاجانب (الفرنسيين) حرك الافكار ونبه الاذهان بعد ان ذاقوا لذة استشارتهم في الحكم بواسطة مشايخهم العشرة . وكان لحركة الشدة التى قابل بها الفرنسيين ثورة الاهالى . كبت وضغط لهذه النفوس التى كان يطاح منها عشرات الرؤوس يومياً في سبيل اخماد الفتنة فكان لهذا الاضطهاد وقع يخالف ما قصد به المضطهدين فكانت ثورة يتلوها ثورة فتنبهت الاذهان الى شيء اسمه كرامة مفقودة واستقلال ضائع . ومن هذا الوقت ابتدأ زعماء الشعب أو زعماء الوطنيين كل منهم لا تظهر أخلاقه لمواطنيه وحبه لشعبه ، الا بمقدار مطالبته باستقلال مصر وتمسكه به ، ففى الحق لم تكن النزعة الاستقلالية منشأها

في مصر بعد الحرب . انما كانت بعد الحملة الفرنسية اذ ذاقوا لذة الحرية ولذة المساواه ولذة الابتعاد عن الظلم والاضطهاد والتوحش ، فرغبوا في المزيد أكثر وأكثر ، وكان جل اعتمادهم في ذلك على السنة زعمائهم موكلين اياهم للمطالبة بحقوقهم . ومن هنا كان في كل فترة يظهر زعيم . فكان منهم الجبرال يعقوب ثم جرجس الجوهري وابراهيم أخيه وكان منهم السيد عمر مكرم وبعد انتهاء الثورة العرابية تزعم مصر بطرس باشا غالى حتى الحرب .

الطوائف المضطهده

قبل الكتابة عن الجبرال يعقوب أذكر ان الاقباط فى ذلك العهد كانوا فى حالة يرثي لها نظراً للاضطهاد العظيم الذي لحق

بهم من جراء محافظتهم على مذهبهم القديم العهد الذى كان سبباً فى شقائهم واضطهادهم ليس فقط من أصحاب الاديان الاخرى بل ومن النصارى الذين خالفوهم . ولكن بالطبع كانت الشقاقات الداخلية أقل وأضعف من ان تؤثر نفس التأثير الذى تنتجه نفس الاضطهادات الخارجية ، فعلى سبيل المثال أذكر عدة أمثلة ذكرها الجبرتى نفسه وهو من كبار العلماء المسلمين ، ولست أدرى ان كان ذكرها فى كتابه بنوع الفخر فيكون ذا نفسية وضيعة أم ذكرها نصراً للحقيقة وتسجيلا للواقع . وعلى كلا الامرين فلا يجسر شخص ما ان يفندها لان لا مصلحة له فى هذا السبيل .

قصد جمع كبير من أقباط مصر الى الحج سنة ١٧٥٣ . ولما أرادوا السفر في موكب حافل تصدى لهم جماعة المشايخ بحجة أنه لايجوز مساواة أقباطها بمسلميها فيخرجون بموكب مثلهم . واذن للعامة بالخروج على الموكب فنهبوا متاعه وسرقوا ذهبه وفضته وأمواله .

ولم يكتفوا بنهب كل ما مع الحجاج بل زادت ثورتهم حتي ارتدوا الى المنازل والكنائس فنهبوها وهدموها .

وبعد موت على بك الكبير نال الاقباط أذى بليغ اذ كان اسمعيل بك الصغير يكرههم كثيراً وتصدى لأذيتهم أيام ان كان (كتخدا نيا) لمحمد بك أبو الذهب بل ومنعهم من ركوب الحمير ولبس أي ملابس فاخرة . ومنع عنهم شراء الجواري والعبيد أو استخدامهم بل وزاد به التعنت حتى أصدر بعض الاوامر التى تقيد من حرية السيدات بفرض ملابس خاصة ومواعيد للخروج ، وتنبيهاً للاذهان نذكر ان هذه الاوامر كانت خاصة

بطائفة واحدة .

وفي سنة ١٧٨٥ أمر مراد بك بهدم كنائس رشيد وصب عليهم كثيرا من نقمته وغضبه . ولكن في هذا العهد لم تكن طائفة الاقباط هي الوحيدة المضطهدة بل شاركتها الدولة الاسرائيلية حتى بلغ الاضطهاد الى درجة ان كان من المحرم على الافراد التسمية بأسماء الانبياء كابراهيم وموسى وعيسى ويوسف واسحق ومن كان متسمياً من قبل أرغم على تغيير اسمه .

وفي حكم حسين باشا قبطان هجم الجنود بأمره على بيوت الاقباط وباعوا المتاع والاثاث والملابس حتى السيدات القبطيات جميعهن عرضن في سوق الجواري للبيع .

وكان كل والي يدركه الاعواز يتذكر ان هناك أقباطاً يجب ان يعتصرهم حتى الثماله فيفرض عليهم ضرائب ويلزمهم بدفع فديات وغرامات .

واني أذكر هذا وكلي أسف ان أردد قول الجبرتي عن خطبة القاها نصوح باشا قائد الجيش العثماني بعد خروج الفرنسيين من القاهرة قال فيها « اقتلوا الاقباط وجاهدوا فيهم » فلما أدرك كليبر هذا الامر ارتد ثانيا الى القاهرة ودخلها لينقذ أقباطها .

ويكفي تصور الحالة مما ذكرها الجبرتي نفسه اذ قال : وحضر أيضاً رجل مغربي والتف عليه طائفة من المغاربة وفعل أموراً تنكر عليه لان غالب ما وقع من النهب وقتل من لا يجوز قتله يكون صدوره عنه فكان يتجسس على البيوت التي فيها النصارى ويكبس عليهم ومعه جمع من

العوام والعسكر ويقتلون من يجدونه منهم وينهبون الدار ويسحبون النساء ويسلبون ما عليهم من الحلى والثياب ومنهم من قطع رأس البنية الصغيرة طمعاً فى ما على رأسها من الذهب . وقتلوا أيضاً الاقباط الذين فى بولاق ونهبوا بيوتهم وعلى كل حال لم ينج من أيديهم من النصاري فى هذه الفتنة سوي الذين تسلقوا الاسوار وفروا الى معسكر الجنرال كلير والذين افتدوا انفسهم بالمال والذين حماهم الجنرال يعقوب فى قلعته .

وانني اذ اذكر هذا لا يسعنى الا ان أنبه القراء الى ضرر التحريض على هذه الاعمال المنكرة فقد كان الولاة والزعماء المسلمين يحرضون ضد الاقباط ولكن الاذي لم يكن لينال الاقباط وحدهم بل كثيراً ما كان العامة في حماستهم وثورتهم وجنونهم ينهبون بيوت المسلمين أنفسهم ومحلاتهم وكثيراً ما تعدوا علي كرامة علمائهم ومشائخهم وأهانوهم اهانة يخجل الكاتب من ذكرها ووصفها ، وليس هذا بالغريب فقد حدث له مثيل أيام مذبحة الاسكندرية سنة ١٨٨٢ . ولو لم يكن حاكم القاهرة متيقظاً لوقع اضعاف اضعافه فى القاهرة فقد كان الرعاع حتى ليلة دخول الانجليز للعاصمة يقتسمون جهاراً منازل مخدوميهم او المشهورين .

وقد حدث أثناء الثورة في طنطا ان انبرى الرعاع للفتك بالكثيرين فسارع اليهم المنشاوى باشا وجمع بعضهم في منزله وطوقه بخدمة وحماهم فكان عدد القتلى فى الشوارع حسب الاحصاء الرسمى من اطفال ونساء ورجال ١٢٢ والله أعلم كم كان من المقدر ان يكون العدد لولا شهامة المنشاوى .

وفى تراجم الجبرال يعقوب والسيد عمر مكرم والجوهريان جرجس وابراهيم القليل من هذه الحوادث التي خفت ان أعددها وأذكرها كلها حتى لا اتهم بالتفريق بينما انا اذكرها على سبيل سرد الحقائق وتبيان الاضرار التي تنتج من مثل هذا التهور والاجرام الذى لا زال البعض يعمد اليه ..

الجزال يعقوب

الجنرال يعقوب

نبغ من المصريين فى القرن الثامن عشر رجل قبطى من سلالة الشعب المصرى القديم استحق ان يخصص له التاريخ صفحة جيدة من صفحاته وهو يعقوب حنا وقد لقب فيما بعد المعلم فصار المعلم يعقوب ثم الجنرال يعقوب .

وبعدت شهرة المعلم يعقوب فى عهد أحتلال الفرنسويين للديار المصرية (١٧٩٨ — ١٨٠١) فتحدث عنه مؤرخو الفرنسويين وورد ذكره في المكاتبات الرسمية والوثائق المحفوظة في وزارتى الحربية والخارجية بباريس وفى هاتين الوزارتين كل ما يتعلق بالمعارك الحربية واسماء القواد والضباط والجنود ، فهما مرجع صحيح الرواية .

ومما يجعل سيرة المعلم يعقوب جديرة بالدرس أنه أول قبطى الف جيشاً قبطياً بقيادته وكان رفيقا للقائد « ديسيه » أحد قواد حملة نابليون وشريكا له فى حملة الصعيد ، وهو كذلك أول رجل من غير الفرنسويين منحته حكومة الجمهورية الفرنسوية رتبة قائد .

يقول المؤلف نقولا الترك وكان شاهد عيان فى تلك الحملة « كان عند الجنرال ريسيه من الاقباط المشهورين يعقوب الصعيدى . وهو رجل قوى الشكيمة مشهور بالفروسية والهمة العالية وهو الذى كان فى خدمة سليمان

بك فلما آنس فيه الشجاعة وظهرت له قوته واستعداده قدمه الى نابليون وأطرى اخلاصه فقربه هذا اليه وأعجب ببسالته مما دعى يعقوب الى تأليف فيلقه » .

وأهم من هذا كله انه أول مصرى وضع مشروعا لاستقلال مصر عن الدولة العلية وعن حكم المماليك اذ أرادها بلاداً حرة خالصة لاهلها ولكن المنية لم تمهله حتى ينال الموافقة من الدول على هذا الاستقلال . وقد عثر في السنوات الاخيرة في محفوظات وزارة الخارجية البريطانية على الوثائق التى تضمنت مشروع الجنرال فنشرها المسيو جورج دوان في مقدمة كتابه « مصر المستقلة » وقد طبعت باللغة الفرنسية سنة ١٩٢٤ ثم نشرها الاستاذان توفيق اسكاروس وميخائيل بشاره داود فى مجلة مصر الحديثة . وفى سنة ١٩٣٢ نقلها الاستاذ شفيق غربال في مؤلفه باللغة العربية المسمى « الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس » .

وقد نوهوا جميعاً بفضل الجنرال وأذاعوا للملأ عمله التاريخى ولهذا رأت لجنة التاريخ القبطى ان تجمع ما تفرق مما كتب عن الجنرال يعقوب وتستخلص زبدته فقدمته الى القراء مثلا أعلى لحب الوطن والتفكير فى خلاصه وتحريره يجتذبه أبناء الوطن ويجدون فيه باعثاً على الفخار والشعور بالكرامة الوطنية . فان تاريخ الامم التى فازت باستقلالها ليس فى الواقع سوى تاريخ فئة من أبنائها الصميمين البارزين كانوا أمثلة في الشجاعة والاخلاص لبلادهم وهم الذين جاهدوا فى سبيلها وبنوا صرح مجدها ونسجوا ثوب عزها .

الرأي الذى أجمع عليه المؤرخون هو ان يعقوب ولد فى مدينة ملوى من اعمال مديرية اسيوط فى سنة ١٧٤٥ ميلادية من أبوين قبطيين وهما يوحنا ومريم غزال ابنة توفيق غزال .

وهذا الرأي يعززه ان اخوته وأخواته ولدوا فى ملوى وفيها ربى هو وتعلم العلوم الاولية وفيها تزوج امرأته الاولى واقتنى منزلا . ولما اجتازها الجيش الفرنسوى وهو يطارد مراد بك أراد يعقوب ان يعرج عليها لكى يحتفل فيها باكرام القائد ديسيه الا ان هذا كان همه تعقب مراد بك فلم يشأ التوانى فى المسير .

لم يكن بمصر في ذلك العصر من معاهد التعليم سوى الكتاتيب القبطية يتلقى فيها أبناء القبط القراءة والكتابة وشيئاً من الحساب الابتدائى ويستظهرون المزامير والالحان الكنسية . فأدخل يعقوب كتاب بلدته حيث قضى سنيه الاولى كما يقضيها أترابه دون ان يمتاز عليهم أو على سائر اخوته بشيء ما .

ولما كبر يعقوب لم يكتف بما تلقنه من المعارف الاولية في الكتاب بل واصل الاجتهاد في الدرس لذاته فأحرز قسطاً وافراً من اللغة العربية وأجاد كتابة الخط ورعى الاصول الحسابية . وكان القبط مشهورين باتقانها . والذى دفعه الى ذلك ما طبع عليه من جد وطموح للارتقاء وبقوة عزيمته استطاع ان يحرز جانباً من الثقافة ازدادت به معلوماته فساعده ذلك على بلوغ المرتبة الرفيعة التي بلغها فيما بعد .

* * *

وأتم يعقوب العقد الثاني من عمره فألحقه والده كاتباً عند قريب له من المشتغلين بجباية أموال أحد المماليك الذين كانوا يتقاسمون حكم البلاد فى ذلك العصر . وهنا بدأت مواهبه تظهر واكتسب كثيراً من المعلومات الادارية والحسابية ولما طرد على بك الكبير محمد باشا الحاكم العثمانى من القاهرة وولى حكم البلاد وقبض على زمام السلطة العليا فيها قرب اليه المماليك الآخرين بالانعام عليهم برتبة البكوية . واتفق في أثناء ذلك أن التحق يعقوب بخدمة أحد هؤلاء وهو سليمان بك أغا الانكشارية وكان واسع الثروة كثير الممتلكات ولم يمض طويل وقت حتى آنس سليمان بك في يعقوب الامانة والمقدرة فأولاه ثقته وأقامه مديراً عاماً لمالياته .

وقد كانت هذه الادارة تقتضى جباية الضرائب والرسوم الجمركية وايجارات الاراضى الزراعية . ويزيد تعقد هذه المهام اختلاف العملة وتعددها وتغير قيمتها من حين الى حين فأكسبته خبرة واسعة مالية وادارية أعانته على تأدية المهام التى عهدت اليه فيها الحملة الفرنسوية لما قدمت الى مصر والى جانب ما تقدم أحرز يعقوب صفات عسكرية ممتازة من مرافقته للمماليك وكانوا ذوي بأس ومعروفين بالفروسية والشجاعة وميالين الى القتال وقلما كانت تنقطع حروبهم ومناوشاتهم . فمنهم تعلم يعقوب ركوب الخيل وتدرب على الطعن بالسيف .

وكانت مؤهلات يعقوب وكفاءته المالية والادارية على النحو الذى كان سائداً فى زمانه سبيلا الى ثروة كبيرة جمعها فأصبح ذا ممتلكات وأموال وخدم وحشم ومستخدمين وأتباع فأضيف الى اسمه لقب «المعلم»

وهـو لقب كان يعطى فى مصر فى القرون الوسطى للدلالة على الشرف والزعامة ويطلق على كل من يبرز في علم أو صناعة أو يحرز أموالا وضياعاً .

ولمـا كان يعقوب فى الخامسة والعشرين من العمر تزوج بامرأته الاولى « مختاره الطويل » وهي ابنة عمه وكان عمه رجلا ثرياً ببلدة ملوى له تجارة واسعة وممتلكات كثيرة وقد رزق يعقوب من امرأته هذه ولداً مات طفلا وبعد قليل لحقت به أمه بطاعون وذهبت ضحيته .

وبعد انقضاء اثنتى عشرة سنة من وفاة زوجته الاولى تزوج بامرأته الثانية وكانت فتاة سورية من حلب تدعى مريم نعمة الله البابوتجى . ولمـا قدم القاهرة في سنة ١٧٩٢ بارك البطريرك الانبا يؤانس الثامن عشر — والمائة والسابع فى عدد البطـاركة — هذا الزواج ولم يكن قد كتب به عقـد جرياً على العـادة المتبعة الى ذلك الحين اذ كانت عقـود الزواج شفوية بايجاب وقبول . الا ان هذا الزواج سجل رسمياً في فرنسا أمام قاضى المصالحـات فى سنة ١٨١٨ بشهادة شقيقتي يعقوب وشهود آخرين من أصدقاء الاسرة لمناسبة اثبـات وفاة يعقوب واحصاء تركته وورثته ومنهم زوجته الثانية هذه .

وأتاح مجيء الفرنسويين الى أرض الفراعنة في أواخر القرن الثامن عشر الميـلادى للمعلم يعقوب الفرصة لاظهار مواهبه فأصبح عظيماً من عظماء التاريخ وذاعت شهرته فى الديار المصرية وفى الاقطار المجاورة لها ، فان الشريف حسن شريف مكة لقبه « بعظيم حملة ديسيه في الوجه القبلي » لما بلغه أنه أرسل جيشاً لتأييد مراد بك وطلب ان يستعد للقتال . كما ان

المماليك طلبوا وساطته في الصلح بينهم وبين ديسية .

هذا الرجل المقدام والفارس الشجاع القيت على عاتقه مهام لا يستطيع غيره النهوض باعبائها ولكنه أداها على خير ما يرام وبأفضل أسلوب ابتغاء الوصول الى تحرير بلاده من يد المماليك والترك . ولما فتح بونابرت القاهرة واستقر به المقام قدم اليه جرجس الجوهرى — وكان عميد القبط اذ ذاك — أعيان أبناء الطائفة وبينهم المعلم يعقوب ، فعين منهم المعلمين سدره الشماع وبانوب الجيزاوى وجرجس صرابمون وملطى ساروفيم ويوحنا الصولى رؤساء للمالية فى بعض المديريات .

أما يعقوب فقد احتفظ به لما هو أهم من ذلك . فانه لما لجأ المماليك الى الصعيد فكر بونابارت فى القضاء عليهم فجهز حملة بقيادة الجنرال ديسيه ، ولما كانت هذه الحملة بحاجة الى رجل أمين يجمع فى شخصه الصفات العسكرية والادارية وله خبرة تامة بالبلاد التي تجتازها الحملة والمام تام بكيفية جمع ما تحتاج اليه من المؤن وقع اختياره على المعلم يعقوب فعينه مديراً عاماً للحملة .

وكان المعلم يعقوب عند حسن ظن بونابارت به فجهز للحملة المؤن والذخائر وأمن لها طرق المواصلات ورتب حركاتها وعين مواضع اقامتها ونظم الشؤون المالية والادارية على الوجه الاكمل وساعده على ذلك ما كان له فى نفوس أهل البلاد من منزلة رفيعة بدليل قول الضابط بليار « ان الشعب كان ينظر الى يعقوب كأنه السلطان الاعظم والقائد العام الذى احتل الصعيد » .

وقد نهض يعقوب وحده باعباء تموين الحملة والجيوش المتفرقة على طول النيل وليس ذلك فقط بل نهض أيضاً بادارة مالية الوجه القبلى كله من توزيع الضرائب الى جبايتها والتوفيق بين الاوامر الجديدة التي كان يصدرها الجنرال ديزيه والانظمة القديمة المألوفة فى البلاد .

هذه المقدرة الفائقة جعلت له كلمة مسموعة فى الامور الادارية والسياسية ومن أدلة ذلك أنه لما كان (بليار) يتولى الاشراف على جباية الضرائب اذ تأخر أهل قرية من قرى بنى سويف عن تسديدها فقبض بليار على مشايخها رهينة عنده حتى يتم التسديد واتفق ان المعلم يعقوب وصل الى بنى سويف وقد كان آتياً مع الجنرال ديزيه من الفيوم فما ان علم بالامر حتى احتج وطلب اخلاء سبيل الشيوخ المحجوزين والكف عن ارهاق الاهالى فوافقه الفرنسيون ولا سيما ديزيه وعملوا بنصيحته .

رجعة الى الماضى :

في سنة ١٧٨٦ اى قبل مجيء نابليون بسنتين وقبل حملة الصعيد بنحو اثنتي عشرة سنة كان يعقوب يشترك مع المماليك في حروبهم وغزواتهم كما تقدمت الاشارة الى ذلك . ومما يذكر عنه أنه رافق مراد بك فى محاربته للترك وشهد الموقعة التى دارت رحاها بالقرب من المنشية من اعمال اسيوط وكان له نصيب من النصر الذى أحرزه مراد بك .

ومما يدل على ان يعقوب قد تدرب على فهم الاصول والقواعد العسكرية أنه عندما وصلت جنود حملة الصعيد الى المنشية حيث دارت المعركة المشار اليها أخذ يصف للجنرال ديسيه وأركان حربه كيف انكسر

الترك . ويقول فيفان دينون وكان بين المستمعين للقصة ان يعقوب وان لم يتكلم عن نفسه في الوصف الدقيق للموقعة فقد فهم الجميع انه كانت له يد فى هذه الموقعة وأثنوا عليه .

وحدث ان بونابرت غادر البلاد المصرية الى فرنسا بدعوة من حكومة الدير كتوار فسلم قيادة الجيش الى الجنرال كليبر وهذا تولى تنظم المصالح ادارياً ومالياً وحينئذ ذكر ديسيه المعلم يعقوب ووجوب الانتفاع بخبرته ومقدرته فأوحى بذلك الى الجنرال كليبر فطلب منه الاشتراك معه فى هذا العمل ومعاونته فى تنفيذ مشروعاته فقبل ذلك ونهض بما عهد اليه فيه وجمع حوله مساعدين أحسن اختيارهم وجعل مكتبه فى منزل البارودى وأدار الامور ادارة حسنة بما خول له من سلطة واسعة وكانت اختصاصاته تشبه اختصاصات وزير المالية فى أيامنا هذه .

وبعد انتصار كليبر فى معركة هليو بوليس « عين شمس » على الترك في ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ واخماد ثورة القاهرة التي نشبت وقتئذ دخل الجنرال كليبر القاهرة ظافراً وفرض غرامة مقدارها ١٢ مليونا من الفرنكات على سكانها وعهد الى المعلم يعقوب في جبايتها وخوله السلطة المطلقة لذلك فاستعمل الحكمة في تحصيلها دون ارهاق الاهلين في ذلك .

وذكر الشيخ عبد الرحمن الجبرتى فى تاريخه أنه عهد الى يعقوب غير ما تقدم فى اعمال أخرى ادارية ومالية فكان يؤديها بسلطان مطلق .

ولما أتمت حملة الوجه القبلى مهمتها باخضاع الصعيد بأكمله الى اصوان

التمس ديسيه وهو عائد الى أسيوط وسيلة يتصل بها بجنوده المتفرقين فى البلاد على طول النيل اتصالا مستمراً وسريعاً للمحافظة على الامن وكاشف المعلم يعقوب بذلك فوعد بالتفكير فى الامر ولما وصل الى اسنا خطر له ان يساعد الحملة وينظم فرقة من السعاة الهجانة تتولى البريد وكانت هذه هى الوسيلة الوحيدة السريعة في ذلك الوقت . وفى خلال اسبوع قضاه فى اسنا دبر الرجال والهجن اللازمة ووزع الفرقة على المسافات فأعجب الجنرال ديسيه بالفكرة لانه جعله على اتصال دائم بجنوده فى الشمال والجنوب فكان يرسل الجرحى الى القاهرة ويتزود منها بالميرة والذخيرة .

* * *

ومن أعمال يعقوب الحربية مع الفرنسويين أنه كان ذات يوم سائراً فى طليعة الجيش الفرنسوى الذى يتجسس مكان العدو وكان ممتطياً جواداً مع الفرسان وقد علق فى رقبته على الطريقة العربية سيفاً مرصعاً ووضع أمامه على السرج بندقية وفى منطقته غدارتين واستمرت الطليعة سائرة الى أن غابت عن أنظار الجيش وبلغت عن القوصية عند بلدة العتامنة من أعمال مديرية اسيوط وهناك وجدت الطليعة نفسها بغتة أمام جمع من الاعداء . ففى هذا الظرف الدقيق لم يفقد يعقوب رباطة جأشه بل تقدم وانتضى سيفه وفعل أفراد حاشيته مثله وأخذوا والخطر محدق بهم يقاتلون عدواً يبلغ عشرة أمثالهم ومافتىء يعقوب يقاوم العدو ببسالة ويصمد له الى ان وصل ديسيه الى العتامنة على أثر علمه بأن خطراً يهدد مقدمة جيشه فما رآه العدو حتى ولى الادبار ونجا يعقوب من الخطر فأسرع

ديسيه اليه وهنأه ببسالته وأهدى اليه سيفا تذكاريا .

وحسب يعقوب حسابا للطوارىء بعد ما شعر ان مصر محرومة من جيش وطني يمكن الاعتماد عليه في الملمات ففكر في تأليف فرقة قبطية وطلب ذلك من الفرنسويين فرخصوا له بتأليفها فجمعها من شبان من أهل الصعيد عملوا في الجيش الفرنسوي صناعا وعمالا وكانوا نحو الفين ووكل أمر تدريبهم على الحركات العسكرية الى ضباط اتقاهم كليبر لهذا الغرض فأظهروا براعة في تعلم هذه الفنون .

وضم يعقوب الى الالفي شاب شبانا آخرين فتألف منهم الفيلق القبطي ولكن معظم هؤلاء الشبان عادوا بعد ذلك الى قراهم ولم يبق منهم سوى ٧٠٠ أو ٨٠٠ مقاتل تولى يعقوب قيادتهم وجهزهم بالسلاح والميرة من ماله الخاص . ولما توفي تولى القيادة بعده الكولونيل غبريال سيداروس ابن أخيه كما سيأتي بيانه وقد ترك لنا التاريخ شهادتين من رجال الحملة الفرنسوية تثبتان تأليف هـذا الفيلق وما بذله يعقوب من المال في هذا السبيل .

* * *

في أثناء معركة هليو بوليس « عين شمس » وهي التي دارت رحاها بين الجيش التركي بقيادة ناصف باشا والجيش الفرنسوي بقيادة كليبر العامة في ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ دخل الى القاهرة خلسة كثير من افراد الجيش التركي وأخذوا يحرضون الاهلين على رفع راية العصيان واعلان الثورة في وجه الفرنسويين فأثمرت دعوتهم ونشبت الثورة فعلا ودامت

من ٢٧ مارس الى ١٥ ابريل سنة ١٨٠٠ وكانت نار هـذه الثورة توشك أن تلفح القبط بشواظها لولا أن يعقوب كان غنياً وشجاعاً فأحسن الدفاع عنهم وأنقذهم . اذ أظهر في تلك الظروف العصيبة مقدرة عظيمة واستيقظت فيه الروح الحربيـة فحصن منزله فى الدرب الواسع المجاور للميدان وثبت الى النهـاية أمام حصار شديد كان فيه خصمه اللدود حسن بك الجداوي واستهدف لـكل خطـر وهو على رأس عسكره يشجعهم بأقواله الحماسية وأعماله الباهرة .

وكان حى القبط فى الازبكيـة محصوراً بين القلعة التي أنشأها يعقوب بجوار الجـامع الاحمر من جانب وقنطـرة الدكة من جانب آخر . فهدم يعقوب بعض الدور التى في آخر شارع القبيلة من جهة قنطرة الدكة وجعل منها حصناً ليـكون الحى بين القلعة وهذا الحصن .

وفى هذا الصدد قال المرحوم يعقوب بك نخـله رفيله صاحب تاريخ الامة القبطية فى ص ٢٩٤ ما يأتي :

« قيل ان بعض الثائرين هجموا على جهة شارع القبيلة المعروف الآن بالسوق الـكبير وسوق النصارى من نقطة كانت مهمـلة ودخلوا درب الجنينة وأغلقوا البوابة ووضعوا وراءها أحجاراً فأسرع يعقوب لانقـاذ من بها بطريقة لم تخطر على البال وذلك بأن أخرج من معاصره (للزيت والسيرج) ومعاصر غيره التى بجهة الجامع الاحمر جميع فحول الجاموس وأوقفها أمام البوابة وحصرها بين قوتين من العسكر وأمر الجنود بأن يرشقوا أجسامها بأسنة الرماح فتزاحمت على البوابة فزحزحت الاحجـار

التى وراءها وانفتحت فدخلت الجنود وقبضوا على الثائرين » .

وقال أيضاً في ص ٢٨٩

« هذه القلعة بناها يعقوب بجوار الجامع الاحمر وكانت كما مر القول الحصن الشرقي لحى القبط في أثناء ثورة القاهرة » . وذكر هذه القلعة الشيخ عبد الرحمن الجبرتى فقال : « وبنى له (أى يعقوب) قلعة وسورها بسور عظيم وأبراج وباب كبير تحيط به بدنات عظام وكذلك بنى أبراجاً في ظاهر الحارة جهة بركة الازبكية وفى جميع السور المحيط والابراج طيقاناً للمدافع وبنادق الرصاص على هيئة سور مصر الذي رمه الفرنساوية ورتب على باب القلعة الخارج والداخل عدة من العسكر اللازمين للوقوف ليلا ونهاراً وبأيديهم البنادق على طريقة الفرنسوية » .

وقال المرحوم يعقوب بك نخله رفيله فى ص ٢٨٩ « انه شاهد بعينه آثار هذه القلعة قبل هدمها فى أيام المرحوم اسماعيل باشا خديو مصر » .

* * *

لما عين الجنرال مينو القائد العام المسيو استيف مديراً عاماً لايرادات الدولة احتاج الى خدمات المعلم يعقوب فجعله مستشاراً له . وفرضت ضرائب جديدة الا ان الاموال التى جبيت من الاهلين لم تسد حاجة الجيش وما كان يجب انفاقه في الوقت عينه من المال على المشروعات والاعمال العامة فى بلاد القطر . فاضطر القائد مينو الى ان يعقد قرضاً بمليون ونصف مليون من الفرنكات وفاوض المعلم يعقوب في شأنه .

فاتفق يعقوب مع أربعة من زملائه وهم المعلمون : جرجس الجوهرى

وانطون أبو طاقية وفلتاؤوس وملطى على ان يقدم كل منهم ٣٠٠ الف فرنك وقدموها فعلا على ان تخصم من الضرائب المطلوبة من المديريات الداخلة فى دائره اختصاصهم الادارى وأعطاهم استيف سندات بقيمتها على الخزانة الفرنسوية .

وقد تقدمت الاشارة الى أنه فى مساء اليوم الذى كان فيه يعقوب يخاطر بحياته وهو فى طليعة جيش الجنرال ديسيه عند بلدة العتامنة قدم اليه ديسيه سيفاً فخرياً وكان ذلك عند محطة بنى سند بحضور كبار قواده وضباطه وسائر الجيش ونقشت على السيف هذه العبارة « معركة عين القوصية » اعلاناً بفضل يعقوب في هذه الموقعة في يوم ٢٤ ديسمبر سنة ١٧٩٨ ولا يزال هذا السيف محفوظاً عند الباقين من أفراد أسرته .

أهدي الجنرال بونابرت الى يعقوب عباءة من الفرو وكانت عادة الشرقيين فى تكريم الاشخاص الممتازين اهداءهم كساوى تشريفة فجرى بونابرت على هذه العادة وكان يهدي العباآت باحتفال خاص ويعقوب هو أول من سلمه بونابرت بيده بعد جرجس الجوهرى .

ولما الف يعقوب الفيلق القبطى سنحت للفرنسويين فرصة يظهرون فيها شكرهم له فرقاه الجنرال كليبر الى رتبة كولونل « اميرالاى » في حفلة عسكرية فخمة أقيمت في أوائل مايو سنة ١٨٠٠ وأمر بأن يكون له حرس شرفى يرافقه فى تنقلاته ويقف أمام داره وأعطيت له براءة هذه الرتبة فى ١٠ اغسطس سنة ١٨٠٠ ممهورة بامضاء القائد داماس رئيس أركان حرب جيش الشرق .

وفى ٢٨ فبراير سنة ١٨٠١ دخل الاسطول الانجليزى مياه أبو قير وأنزل جيوشاً الى البر فاضطر القائد مينو للرحيل عن القاهرة لدفع الخطر وأقام الجنرال بليار حاكما على القاهرة وزوده بالتعليمات التى يتبعها اذا زحف الجيش التركى ثم دعا الكولونل يعقوب ورقاه الى رتبة « جنرال » باسم الجمهورية الفرنسية والبسه شارتها الذهبية بنفسه حسب المتبع وذلك فى مارس سنة ١٨٠١ وسلمت اليه براءة هذه الرتبة في ٢٦ ابريل من السنة عينها .

* * *

قلنا ان يعقوب أحرز ثروة كبيرة وقد أشار فيفان دينون الى ماكان ليعقوب من جاه وثروة فوصف احدى الحفلات أقامها للقدائد دبسيه وضباطه وأركان حربه فقال :

« حسب عادات البلاد كانت القاعات التي استقبلنا فيها مفروشة بالحصر والسجاد والارائك وعلى جوانبها المساند وقدم لنا الخدم الماء المثلج الممزوج بالروائح العطرية ثم الشبكات فالقهوة . وبعد نصف ساعة مد سماط كبير وصفت على جانبيه ثلاثة أنواع أو أربعة من الكعك والفطير وصفت وسط السماط أصناف الفاكهة والمربيات والالبان وكان معظمها لذيذ الطعم وذا رائحة زكية . وقد تذوقنا منها كلها حتى أتينا على ما فى المائدة في دقائق . وبعد ساعتين وضع على السماط الخبز وطواجن الرز الدسم الممزوج باللبن وانصاف الخراف المشوية وارباع العجول ورؤوس هذه الانعام مسلوقة وأكثر من ستين طبقاً كدست عليها أصناف عدة

أخرى من أنواع الخضر والفالودج والفطائر والعسل النقى .

« وبعد غسل الايدى تطيبنا بماء الورد ثم قدمت الشبكات والقهوة وحل محلنا على السماط فريق من أهل البلاد ثم أتى بعدهم غيرهم وبعد ذلك جاء دور الخدم والحشم حتى اتوا على آخره » .

« وفى الواقع ان يعقوب كانت له حاشية كبيرة تضم أمناء أسرار وصيارفه ورؤساء خدم وحجابا يحملون العصى ذات الايدي الكروية من ذهب أو فضة وقواصة يفسحون الطريق أمامه وغيرهم من الخدم الذين يؤدون الخدمات الصغيرة فخادم للشبك وآخر للركاب وثالث للمباخر الخ ويتراوح عددهم بين ثمانين ومئة وكان يملك الجياد والبغال التى تحمل الاثقال والجمال والسرج المطعمة بالمعادن الثمينة وفي منزله كثير من النساء الخادمات اللاتي يقمن بالخدمات المنزلية والجوارى السودانيات والحبشيات .

« ويطول بنا الكلام اذا وصفنا كل ما كان يحيط بالمعلم يعقوب من مظاهر الابهة والمجد أما هو فقد ازداد علماً وارتفعت منزلته وكتب له القدر أن يصعد دائماً مدارج العلا وان يثبت للعالم ان جل مراده هو تحقيق أمنيته الوحيدة فى خدمة الوطن ورفع شأنه .

* * *

لما عاد ديسيه الى فرنسا بعد معاهدة العريش التحق بالجيش الذى كان يحارب في النمسا وشهد موقعة مارنجو وهى التى انتصر فيها الجيش الفرنسوى ولكنه قتل فيها في ١٤ يونيه سنة ١٨٠٠ .

ووصل خبر قتله الى الجيش فى مصر بعد ذلك بثلاثة أشهر فأقيمت

حفلة عسكرية لذكراه في يوم ٢ نوفمبر سنة ١٨٠٠ شهدها المعلم يعقوب بملابسه الرسمية محاطا بحرسه الشرفي ورجال فرقته وكان أشد جميع القواد حزناً عليه .

ولما علم ان الجيوش تكتتب بالمال لاقامة تمثال لديسيه في باريس كتب الى الجنرال مينو كتابا باللغة الفرنسوية هذه ترجمته :

« من يعقوب القائد العام للفيلق القبطي الى القائد العام مينو

« في هذا الوقت الرهيب الذي يشعر فيه كل امريء بعظم خسارة الجمهورية بفقد ديسيه المقدام الذي بذل نفسه في سهول مارنجو اسمحوا لي وانا رفيق ديسيه في أعماله بالصعيد بأن أنثر عن بعد الزهور على ضريحه وأسكب العبرات التي هي ترجمان الحزن الذي شملني . ويعجز لساني عن التعبير عنه وأني لي ان أجد كلمات تكفي لاظهار مقدار التياعي .

« ديسيه ! ديسيه ! انهم يقيمون لك أثراً في فرنسا فيعقوب الذي كنت تحبه ويعزك سيدفع ثلث نفقات ذلك الأثر بمفرده بالغة ما بلغت . واذا بقي هذا الأثر شاهداً بأخبار الوقائع والحروب التي خضت غمارها لاسترجاع الصعيد من أيدي المماليك واخضاعه فسيعلم الخلف منه أن يعقوب القبطي حارب الى جانبك واستحق اجلالك واعزازك وقد أخلص لك ووهبك فؤاده من زمن مضى » .

« المعلم يعقوب »

الجنرال يعقوب كما يجب ان تنظر اليه : لا يرى التاريخ الصحيح في موقف العامة وزعمائها وأهل الرأي فيها أثراً لفكرة الاستقلال الوطني ولا سبيل الا لمصري واحد من أهل هذا العصر فضل اعتبار الاحتلال

الفرنسي لا فترة نحس يرجى زوالها وعود الى ما سبقها . بل بدء حياة جديدة لمصر والمصريين مهدت لها الحملة الفرنسية بقطع التبعية العثمانية ذلك المصرى هو المعلم يعقوب حنا . ولا أحب ان أغلو فأزعم ان يعقوب فهم تماما كل الاحتمالات التى انطوى عليها هدم النظم القائمة في مصر وحكم أمة غريبة لها ، وان تحول فى هذه الاشهر القليلة التي قضاها مخالطا للفرنسيين من جاب من جباة الاموال درج ونشأ ودرج فى بيت من بيوت الامراء المماليك في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الى داع من دعاة الحركات الوطنية التي يعرفها الغرب في القرن التاسع عشر . بل أجد يعقوب يحتفظ حتى بعد مخالطة الفرنسيين ببعض صفاة الجباه وعمال الادارة المالية ، ولكنه بالرغم من ذلك تأثر تأثراً بيناً باتصاله بالفرنسيين وبالغرب فكون رأياً خاصاً عن حكمهم لمصر وما يمكن أن يؤدي اليه ولا يشاركه في هذا الرأي أحداً غيره . وعلى ذلك فيرد ذكر يعقوب فى تاريخ الجبرتي مصحوباً باللعين . وكان هذا موضع الاضطهاد فى تاريخه بالرغم من موقفه السليم الذي لا غبار عليه وسعيه في الوصول الى الاستقلال لمصر حتي أنه سافر الى فرنسا أثر خروج الحملة الفرنسية .

خدمات يعقوب للحكم الفرنسى من نوعين : خدمات من نوع ماكان يقوم به للفرنسيين جرجس جوهري وملطى وابو طاقية وغيرهم من كبار الاقباط أساسها السعى للنفع الشخصى من جهة والخلاص مما كانوا فيه من امتهان لا يرفعهم من حضيضه مال او جاه ولا يفارقهم مهما زادت حاجة الحكام اليهم ، وخدمات من نوع آخر أساسها التمهيد لمستقبل البلاد

السياسى بالتعضيد المؤقت للحكم الغربي .

ومن حقق النظر فى أحوال الشعوب الشرقية الخاضعة لحكم السلطان أثناء القرن التاسع عشر يجد ان الطوائف الغير الاسلامية منها نظرت فى أول الامر للتدخل الغربى فى شئونها بالعين التي نظر بها اليه يعقوب فى آخر القرن الثامن عشر .

أول ما فى تأييد يعقوب للتدخل الغربى تخليص وطنه من حكم لا هو عثمانى ولا هو مملوكى وانما هو مزيج من مساوىء الفوضى والعنف والاسراف ولا خير فيه للمحكومين ولا للحاكمين اذا اعتبرناهم دولة قائمة مستمرة . فرأي يعقوب ان أى نوع من أنواع الحكم لا يمكن ان يكون اسوأ مما خضعت له مصر قبل قدوم بونابرت .

وثانى ما فى تأييده للاحتلال الفرنسى انه أتاح فرصة الاتصال بالغرب والتعلم منه . ولا يقل عن هذا شأناً — فى نظره — ما أتاحه هذا الاحتلال من انشاء قوة حربية مصرية (قبطية فى ذلك العهد) مدربة على النظم العسكرية الغربية . ونحن نسلم بأن هذه القوة كانت أداة من أدوات تثبيت الاحتلال . وبأنه لولا هذا ما سمحت السلطات الفرنسية بانشائها وتسليحها وتدريبها ، غير انه يلزمنا ان نذكر ايضاً ان الدلائل كلها كانت تدل على ان هذا الاحتلال لن يدوم ، وان القائد كليبر نفسه الذي أذن بانشاء القوة القبطية كان لا يري البقاء فى مصر وانه لهذا حاول — كما نعلم — الجلاء عنها بعقد اتفاق العريش فى يناير ١٨٠٠

ذلك الاتفاق الذى كان له بعض العذر فى نقضه . وتبين لنا فى موضع آخر من هـذه الـكتاب ان بعض أصدقاء يعقوب من الفرنسيين اهتموا بمستقبل القوة الحربية القبطية أكثر مما اهتموا بحاضرها وانهم كانوا يحبـون ان يروها على حال من البـأس تجعلها العنصر المرجح فى مستقبل مصر بعد جلاء الفرنسيين عنها .

كان وجود الفرقة القبطية اذن أول شرط أساسي يمكن رجلا من أفراد الامة المصرية يتبعه جند من أهل الفلاحة والصناعة من ان يكون له أثر فى أحوال هذه الامة اذا تركها الفرنسيون وعادت للعثمانيين والمماليك يتنازعونها ويعبثون فيها فساداً ، على الرغم من انه لا ينتمى لاهل السيف من المماليك والعثمانيين ، وبغير هـذه القوة يبقى المصريون حيثما كانوا بالامس : الصبر على مضض او الالتجاء لوساطة المشايخ او الهياج الشعبي الذى لا يؤدى لتغيير جوهرى ، والذى يدفعون هم ثمنه دون سواهم ، وهنا الفرق الاكبر بين يعقوب وعمر مكرم . يعقوب يرمى الى الاعتماد على القوة المدربة والسيد عمر يعتمـد على الهياج الشعبي الذى تسهل اثارته ولا يسهل كبح جماحه والذي قد يصل سريعاً لتحقيق أغـراض حاسمة ولـكنه لا يصلح قاعدة للعمل السياسى الدائم المثمر . فـكما ان العـامة سريعة الهياج فى أوقات الخلل واضطراب الحـكم فهى أيضاً سريعة القنوط خصوصاً اذا اصطدمت بجند مسلحين حتى ولو كان أولئك الجند من نوع ما كان في مصر فى أوائل القرن التـاسع عشر من ترك والبانيين ومن ماثلهم . وقـــد رأينا ما كان من أمر السيد عمر لما وجد أمامه محمد على

لا خورشيد . هـذا الفـرق بين الاداة التي اختـارها يعقوب وتلك التى اختـارها السيد عمر ، ليس في الواقـع الا مظهراً لفروق أعمق ، اذ ما حاجة هـذا السيد نقيب الاشراف الى جيش ، والرجل لا يتصور مصر الا خاضعة لحـكم المماليك تحت سيادة السلطان ولا يرمى الى أبعد من ان يملي ارادته على القائمين بالامر فيها مدافعـاً عن أفراد الرعية كلما زاد الفساد ؟ وهو لهذا يكفيه قيام أهل القاهرة واجتماع كلمة العلماء . اما يعقوب فله شأن آخـر . اذ أنه لا يريد عودة المماليك والعثمانيين وانما يعمل على ان تـكون لفئـة من المصريين يد في تقرير مصير البلاد بدلا من ان يبقى حظهم كما كان فى الحوادث الماضية مقصوراً على التفرج او الاشتراك فى نهب المهزومين : ذكر الجبرتى فى حوادث المحرم سنة ١٢١٨ فى كلامه عن اشتبـاك الالبانيين بأتراك الوالى العثمانى خسروا — ذلك الاشتبـاك الذى انتهى آخـر الامر بولاية محمد على ، ذكر ان الالبانيين كانوا يقولون للعامة من أهـــل القاهرة : « نحن مع بعضنا وأنتم رعيـة فلا علاقة لـكم بنا » أنتم رعيـة ، تخضعون لمن ينتصر منا . هذا كل ما لـكم ! (ذكرت في الجبرتى ص ٢٥٥ جزء ٣) .

أراد يعقوب ان يكون الامر غير ذلك ، وعول على ان تـكون القوة الحربية المصرية الجديدة مدربة على النظم الغربيـة ، فـكان سباقاً الى تفهم الدرس الذي القـاه انتصار الفرنسيين على المماليك ، او قـل الى ادراك ما أدركه محمد على بعد قليل من ان سر انتصار الغربيين في جودة نظمهم وبخاصة نظمهم العسكرية ، فسرق البرق من الآلهة وكان له ما كان .

السفر : أبحرت البارجة فى ١٠ اغسطس سنة ١٨٠١ وبقى الجنرال يعقوب واقفاً على ظهرها ينظر الى الشواطىء المصرية الى ان غابت عن عينيه .

وقد كان يعقوب يؤمل ان يصل فرنسا لا ليعيش فيها ويقطع صلته ببلاده بل ليتقرب الى حكومتها بما كان له من منزلة في نفوس القابضين على أزمة شؤونها ثم ليتخذ من ذلك وسيلة الى خدمة وطنه بالمشروع الذى كان يشغل فكره الا وهو استقلال مصر .

ولكن الاقدار قطعت عليه أحلامه اللذيذة وسارت رياحها على غير ما تنتهى سفينة آماله فقضى في البارجة يومين اثنين ثم أصيب بمرض فجائى لزم لاجله الفراش ولم يطل مرضه سوى أربعة أيام .

وفي اليوم الخامس من الرحيل أدرك الجميع ان حالته تزداد خطورة كما شعر هو بدنو أجله فقابل الموت ببسالة وبقى متنبه العقل الى آخر لحظة فأوصى بكريمته (منه) وودع والدته واقاربه وطلب ان يرى الجنرال بليار ليكلمه فأسرع اليه ولما رآه وقف منتصباً ولكن قواه خارت فسقط على سريره فانحنى بليار ليعلم ما يريد الافضاء به اليه فكانت آخر كلمة خرجت من بين شفتيه هى ان توضع جثته بجانب ديسيه في مقبرة واحدة ، وأسلم الروح وكانت الساعة السادسة والنصف من صباح يوم ١٦ اغسطس سنة ١٨٠١ .

ولما وصل نبأ وفاته الى قومندان البارجة سجل في يوميتها وفاته والموضع الذى كانت فيه البارجة وقت الوفاة « وهذه كانت طريقة للاشتراك في الحزن » ولقد دون في اليومية ان البارجة كانت فى لحظة

وفاة الجنرال يعقوب في درجة العرض الشمالى ٤١ر٣٥ ودرجة الطول شرقي جرينويتش ٢٩ .

وجرت العادة بأن الركاب الذين تفاجئهم منيتهم فى عرض البحار حينما تكون السفن بعيدة عن الشواطىء تلقى جثتهم فى البحر ولكن نظراً الى رفعة مقام الجنرال يعقوب لم تتبع هذه القاعدة فى أمر جثته ووجدوا وسيلة لحفظها من الفساد وهى غمرها في دن من الخمر الى ان تصل البارجة الى ميناء مرسيليا لتدفن فيها . وقد لزم للسفينة نحو شهر من الزمن لتقطع المسافة من المكان الذى كانت فيه عند الوفاة الى مرسيليا اذ أنها لم تصل اليها الا في ١٧ سبتمبر سنة ١٨٠١ .

وبعد خمسة أيام سمح بنقل جثمان يعقوب من السفينة الى الحجر الصحى واتفق ان ذلك اليوم وهو ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٠١ كان عيداً من أعياد الجمهورية فشهد نقله أقارب يعقوب والقبط الذين رافقوه وعدد كبير من الركاب وتولى البحارة الانكليز بأمر رئيسهم انزال الجثة .

واعترافاً بفضل رجال البارجة ومكافأة لهم على المتاعب التى تحملوها قدم شقيقه حنين حنا عند وصولة الى مرسيليا لكل بحار هدية تعادل قيمتها ريالا .

وبعد ما بقيت الجثة فى الحجر الصحى نحو ٢٥ يوماً احتفل بتشييعها احتفالا فخماً أدت فيه عساكر جيش الحملة الفرنسوية التحية العسكرية وكذلك الفيلق القبطى ووصف ذلك شاهد عيان هو الطوبجى لويس يوسف بريكار فى يوميته فقال :

« فى يوم ١٨ اكتوبر سنة ١٨٠١ خرجت من المحجر الصحى جيوش الجنرال روبين وفي نفس هذا اليوم كان الاحتفال بتشييع جنازة المعلم يعقوب قائد الفيالق المسيحية فى مصر وقد توفى فى أثناء عبور البحر »

ودفن يعقوب فى مقبرة كانت ملحقة بالكنيسة القديمة للقديس مارتان ثم نقلت جثته الى الحياة الجديدة المعروفة بحياة القديس شارل ثم نقلت فى سنة ١٨٦٥ الى حياة القديس بطرس في مدفن عائلته ودفنت بحياة كريمته التي توفيت في سنة ١٨١٢ وعمرها ١٩ سنة تحت ظل النخيل الذى غرسه أحفاده حول نصب المقبرة لتعيد ذكرى شاطىء النيل .

* * *

ويظهر قدر يعقوب من شهادات العظماء والمؤرخين واليك بعضاً منها :

(١) كتاب من القائد العام بونابرت (نشر بصفحة ٢٤٨ من تاريخ نقولا الترك) قدر فيه شجاعة الجنرال يعقوب قدرها ووعده باعلاء مرتبته.

(٢) كتاب فى ١٢ مارس سنة ١٨٠١ من الجنرال مينو يقول فيه :

« لو لم يكن الامر بحاجة الى شيء آخر غير الشجاعة يا يعقوب لاستصحبتك معى لانى واثق أنك من أشد المحاربين بأساً ولكنك تمتاز بصفات أخري أكثر نفعاً من الشجاعة لذلك تركتك هنا لتسهر على مصلحة الجميع » الى ان قال « وأرجو ان تبث شجاعتك ونشاطك فى القبط الذين تقودهم » .

(٣) أقوال الذين كانوا في جيش الشرق عن يعقوب . قال الجنرال بليار الذى اشترك في حملة غزو اقليم طيبه : « يعقوب القبطى يلعب الآن

دوراً عظيماً في البلاد فالاهلون ينظرون اليه كالسلطان الكبير وقد كانت فرقتنا المكونة لجيش الوجه القبلي تنظر بعين الاحترام الى جيش المعلم يعقوب » .

وقال فيفان دينون الملحق بحملة مصر والمرافق لقوة الجنرال ديسيه الى اصوان :

« المعلم يعقوب رجـــل ممتاز بمواهب عجيبة وهو مثال الامانة والاخلاص .. ويملك ثروة كبيرة كما ان له منزلة عالية فى البلاد وهو ينفق بسعة كعادة الشرقيين في الكرم » .

وكتب الجنرال مينو الى بونابرت كتابا فى ١٠ برمير للسنة التاسعة للجمهورية ما يأتى :

« اني وجدت رجلا ذا دراية ومعرفة واسعة اسمه المعلم يعقوب وهو الذى يؤدى لنا خدمات باهرة ومنها تعزيز قوة الجيش بجنود اضافية من القبط لمساعدتنا » .

وقال المسيو جورج ريجو أحد الكتاب الحديثين « ان كفاءة المعلم يعقوب المالية هى فوق كل مناقشة » .

وقال الاستاذ محمد صبرى فى مؤلفه تاريخ مصر الحديث المطبوع فى سنة ١٩٢٦ ما ملخصه :

« ان يعقوب فى بداية الاحتلال الفرنسى التحق بخدمة الفرنسويين الذين دخلوا مصر أصدقاء يحملون راية جديدة هي راية الحرية وبارح مصر على رأس وفـــد مصرى مؤلف من أعيان القبط وكانت فكرته

الاساسية مخاطبة انكلترا فى أمر استقلال مصر ولكن وفاته العاجلة فى الطريق قضت فجأة على مشروع مفاوضة دول أوربا فى ذلك الاستقلال »

* * *

وهنا نأتي الى أمجد صفحة في تاريخ الجنرال يعقوب فانه فى اليومين اللذين أقامهما في البارجة قبل مرضه اتصل بقائدها القومندان « جوزيف ادموندس » وأخذ يحدثه بما كان يجول في نفسه عن مستقبل بلاده فلقى من القومندان اصغاء واقبالا عليه واهتماما بحديثه لانه عرف قدره وأدرك أنه زعيم قومه فوثق به يعقوب وكاشفه بما أعده من مشروعات لاستقلال مصر .

وكان حديثه مع القومندان سريا لم يحضره سوى سكرتيره المدعو لاسكاريس ، ولما توفى يعقوب تولى لاسكاريس تدوين ذلك الحديث في مذكرات قدمها الى القومندان ادموندس وبسط فيها مشروع الاستقلال ونوع الحكومة الوطنية التي تؤلف في ظل هذا الاستقلال وطلب من القومندان ان يبلغها للحكومة الانكليزية كما أنه أرسل الى بونابرت القنصل الاول مذكرة بامضاء « نمر افندى » بالنيابة عن الوفد المصري ومذكرة ثالثة الى المسيو « تاليران » وزير الخارجية الفرنسوية طالباً منه ان يستقبل هذا الوفد ليبسط له شفويا الغرض الذى يسعى اليه .

وقد نفذ القومندان ادموندس ما طلب منه فأرسل كتابا الى اللورد الاول للبحرية الانكليزية وأرفق به مذكرات لاسكاريس المشار اليه

وبقيت هـذه الوثائق محفوظة فى وزارة الخارجية الانـكليزية الى ان عثر عليها من سنوات كما قدمنا .

وقيض الله فى هـذا العصر من كشف عن هذه الصحيفة المجيده فى تاريخ الجبرال يعقوب اذ عثر الاستـاذ شفيق غربال فى سجلات وزارتى الخـارجية الانـكليزية والفرنسوية على ما يثبت ان يعقوب فى سنة ١٨٠١ لما تبع الجيش الفرنسوى الى فرنسا كان قصده تحقيق مشروع خطير هو الحصول على اعتراف الدول باستقلال مصر .

وقد أشار الى هذه الوثائق فى مؤلفين له أحدهما باللغـة الانـكليزية وعنوانه « The Beginning of the Egyptian Question » والثانى باللغة العربية وعنوانه « الجبرال يعقوب والفـارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر في سنة ١٨٠١ » وقد طبع فى سنة ١٩٣٢ . كما أشار اليهـا غيره من قبل .

وفى سنة ١٩٢٤ نشرت الجمعيـة الجغرافية الملكية بعنوان « مصر المستقلة — مشروع سنة ١٨٠١ — وثائق لم تنشر قبـلا وجـــدت فى محفوظات وزارة الخارجية في لندن » (وهى الوثائق التى يقول الاستاذ شفيق غربال فى رسالته أنه عثر عليهـا هو أيضاً فى هذه المحفوظات) — مقدمة باللغة الفرنسوية بقلم المسيو جورج دوان نقتصر على نقل الفقرة الآتية منها وهذه ترجمتها :

« والذى نروم ان نذكره وننبه اليه هنـا على ضوء الوثائق التي

وجدت حديثاً في محفوظات وزارة الخارجية الانكليزية هو ان فكرة الاستقلال المصري التي نشأت في ظل حملة بونابرت كانت قد خطرت منذ فجر القرن التاسع عشر للمصريين فان واحداً منهم وهو المعلم يعقوب القبطي أعرب عنها بلسانهم الا ان موته قبل الاوان في اغسطس سنة ١٨٠١ حال بينه وبين عرض هذه القضية والدفاع عنها أمام وزارات أوربا » .

شيء عن وثائق الاستقلال : بدأ الكاتب باهداء التحيه للورد الاول للبحرية الانجليزية (الموجه اليه الخطاب) وتذكيره بأن اهتمامه بما تضمنته المذكرة فيه نفع دولته وان ماقد يقوم به لتحقيق استقلال مصر أجمل مايجدر بلورد انجليزي ان يسعى له . ثم أطنب في وصف عظم هذا المشروع — تحقيق استقلال مصر . وان هذا الاستقلال يبدد سحب الجهل التي تكاثفت على هذا الوادي الذائع الصيت حيث مهد الحضارة ، فيه تعلم الاغريق وعن الاغريق ورثت أوربا علومها وفنونها واستنارة أهلها . ألا يثير ذلك في نفوس الغربيين شيئاً من عرفان الجميل فيردوا لمصر الاستقلال الذي به تستعيد ماكان لها ؟

ثم بين الكاتب ان مصر المستقلة لن تضر أحداً ، وان استقلالها وقد أصبحت موضع أطماع الدول خير حل للمسألة المصرية . تلك المسألة التي اثارتها الحملة الفرنسية والتي يحتم انهيار بناء الدولة العثمانية مواجهتها . وذكر ان مراد بك قبيل موته أدرك مدى هذا التطور الاخير في تاريخ بلاده وعبر عنه في قوله « أن مصر قد عرفها كفار الغرب فلن ينفكوا

عن السعى للاستيلاء عليها » .

وتناول أيضاً فى مذكرته بحث ما تصيبه الدولة الانجليزية من نفع فى تحقيق هذا المشروع فأكد صداقة المصريين للامة الانجليزية بعد ان عرفوا جنودها وبعد ان خبروا الحكم الفرنسى وأن سيدة البحار لا بد وان تسيطر بنفوذها على مصر وتكون اول من يستفيد من موقعها الجغرافى .

ولم يغفل الكاتب الكلام عن أمرين جوهريين . وقد جاء كلامه عنهما أضعف ما فى مذكرته : الاول نوع الحكومة المصرية المستقلة ، الثاني ما تتخذه هذه الحكومة للدفاع عن كيانها . اما عن نوع الحكومة فاكتفى بعد مراوغة كلامية بالقول بأنها ستكون وطنية عادلة حازمة وانها بذلك تنال احترام الامة وطاعتها وحبها ، أما عن وسائل الدفاع فنجده يقرر ان الحكومة الوطنية لن تقوى على صد اعتداء أوربي الا بعد مضى زمن طـــويل ولكنها تستطيع أن تصد الترك وتسحق المماليك بجيشها الوطنى تشد أزره قوة حربيه أوربيه و يبذل المال لرجال الباب العالى .

وتؤكد المذكرة فى النهاية أن الفكرة الاستقلالية لها أنصار فى مصر وان هؤلاء الانصار يخفونها حذر الموت ، ويطلب صاحب المذكرة حمايتهم من اضطهاد العثمانيين اذا ما رفضت الدول انشاء دولة مصرية مستقلة .

أما خطة « الوفد المصري » فى القريب فانها ستكون السعى لدى

الحكومة الفرنسية لاقناعها بقبول قاعدة الاستقلال فى مفاوضاتها مع الحكومة الانجليزية على مصر . ويرجو ان لا يكون مصدر الاقتراح الفرنسى مما يحمل الحكومة الانجليزية على رفضه حذر دسيسة سياسية فرنسية . ويطلب في النهاية أن تكون مخابرات انجلترة مع الوفد شفوية عن طريق الكونت انطون كاسيس المقيم فى تريستا «[1]» .

وفعلا قدمت للقنصل الاول بونابرت مذكرة موقعاً عليها من « نمر افندى » بالنيابة عن الوفد المصري وهذه المذكرة خالية طبعاً من التعريض بالحكم الفرنسى ومن تفضيل المصريين للانجليز ذلك التفضيل الوارد فى المذكرة لانجلترة على أنها تتفق معها فى الغاية الاستقلالية وتطلب تحقيقها باسم التاريخ والانسانية .

وأردف هذه المذكرة بأخرى لوزير خارجية فرنسا ـ تاليران ـ يقرر فيها الغرض الاسمى ويعتذر عن الاجمال تاركا التفصيل الى ان يستقبلهم الوزير فى باريس اذ العرب يجيدون الكلام أكثر مما يجيدون الكتابة . وطلب من الوزير ان يستقبلهم بزيهم الشرقي اذ ان المسلمين منهم يعز عليهم ابدال غيرة به ، فضلا عن ان هذا الزى يثير في نفس بونابرت ذكرى فتوحه ويعرف من لم يرمصر من الفرنسيين بالشرق وأهله .

* * *

(١) تحت هذا الاسم ولقب النبل الغربيين يستتر مصرى قبطى اسمه انطون قسيس . عمل فى ادارة الجمارك فى الاسكندرية أيام المماليك .

لا اللورد الاول للبحرية الانجليزية ولا القنصل الاول ولا وزير الخارجية الفرنسيه اهتم بما في هذه المذكرات بل أودعوها سجلات الحكومة .

وفي « مقدمات الصلح » بين فرنسا وانجلترة اتفق على اعادة مصر للدولة العثمانية وأدمج هذا الاتفاق فى معاهدة الصلح النهائية : معاهدة أميان . وفى سياسة الحكومتين قبل أميان و بعدها لم يتعد اهتمامهما بأحوال مصر و نوع حكومتها ما تعلق منها بعلاقة الدولة العثمانية بالمماليك . وحتى فى هذا لم يكن الاهتمام بها الا من حيث تأثيرها في تسهيل - أو منع - وقوع مصر في حكم انجلترة أو فى حكم فرنسا لا من حيث تأثيرها فى رفاهية أو سعادة الشعب المصرى .

لم يكن اذن لهذه المذكرات أى أثر واقعى رغم هذا لا تخلو هذه المذكرات من شبه لما قرره المصريون وما أعلنوه في ايام أقرب الينا من سنة ١٨٠١ : فى اتباع طريق المفاوضة للحصول على الاستقلال وفى توطيده بالاعتراف الدولى ، وفي تبرير طلب الاستقلال بالتنوية بمجد مصر ، وبأن عظمة الماضى تبعث على الامل فى عظمة المستقبل ، وبأن مصر بها من الموارد فى المال والرجال ما يكفل قيام الدولة المستقلة ، وأخيراً بأن موقعها الجغرافي يجعلها موضع التنافس وان الدولة التى تسيطر عليها تصبح من القوة بحيث تتحكم فى مصالح الدول الاخرى الحيوية وخير الجميع فى استقلالها .

الملحق الاول

من القبطان جوزيف أدموندس ربان السفينة الحربية بالاس
للارل أوف سانت فنسنت اللورد الاول للبحرية الانجليزية
على ظهر السفينة بالاس جزيرة منورقة فى ١٤ اكتوبر سنة ١٨٠١

سيدي :

استبحت لنفسى ان أرسل لكم المذكرات المرفقة بكتابى هذا اعتماداً مني بأنه قد يهم حكومة بلادي ان تعلم ان أشخاصاً يسمون أنفسهم بالوفد المصري يقيمون فى باريس فى الوقت الحاضر .

كان ممن ركب في مصر السفينة بالاس تحت أمرتى رجل قبطى ذو سمعة حسنة جداً وهو من زعماء طائفته وله فيها نفوذ كبير وقد منحه الفرنسيون لقب جنرال لينالوا تأييده .

عنيت بعض العناية بهذا المنفى السيء الحظ مما جعله يحادثنى فى شئون بلاده . وقد صرح لى بأنه يعتقد ان أى أنواع الحكم في مصر أفضل من حكم الترك لها وانه انضم للفرنسيين تلبية لباعث وطني عليه يخفف عن مواطنيه ما قاسوه وان الفرنسيين خدعوهم وان المصريين فى الوقت الحاضر يحتقرونهم كما كانوا يحتقرون الترك وانه لم يفقد بعد آماله في خدمة بلاده وان ارتحاله لفرنسا قد يمكنه من هذا . وقال أيضاً ان الفرنسيين جعلوه يعتقد ان دولتهم لها قوة السيطرة فى أوربا وأنه لم يعرف الا قليلا عن قوة انجلترة البحرية ولكنه كان يعرف رغم هذا أنه بلا موافقة انجلترة

فان رغبتـه في قيام حكومة مستقلة بمصر لن تتحقق وأضاف صديقه لاسكاريس (وهكذا وصف نفسه) وكان يترجم أقواله لى ان الجنرال المعلم يعقوب يرأس وفـــداً فوضه أو عينه أعيان مصر لمفاوضة الدول الاوربية فى أمر استقلالها وأثناء سفرنا مات الجنرال وقام الترجمان (لاسكاريس) بتحرير مذكرات أحاديثنا المرفقة بكتابى هذا . وقد أعرب لى الجنرال قبل موته عن رغبته في ان أبلغ موضوع هذه الاحاديث لقائد القوات البريطانية الأعلى كى تعلم به الحكومة البريطانية بواسطته . وقد قـرر لى المسيو لاسكاريس ان الوفد لم يزل باقياً وان المفوضين الآخرين على ظهـر السفينة بالاس لا يزالون أعضـاء فيه . هذا وانى لم أتمكن من ان أتبين هل هو واحد من هؤلاء المفوضين أو أنه ليس الا سكرتيراً مترجماً له . وأعتقد من كلامه أنه رجل خيالى . وأظنه بيدمونتي الاصل وسمعت انه من أولئك الفرسان الذين تركوا جزيرة مالطـة وتبعوا جيش بونابرت . وقـد أعطيت ميثاقي للمعلم يعقوب بأن أمتنع أنا والحكومة البريطانية من استعمال ما أبلغناه اياه استعمالا يؤذيهم . هذا ولما كان من المحتمل جـداً ذهاب هذا الوفد الذي لا يمكننى تقدير مدى ما بيده من تفويض للاقامة في باريس فقـد رأيت وجوب تبليغكم هذه المذكرات والاحاديث مباشرة . اذ قـد يمضى بعض الوقت قبل ان أجد فرصة لابلاغهـا أولا لرئيسى اللورد كيث . وأرجـو أن تتنازلوا فتقروا مسلكى هذا .

ولى الشرف ... الخ

الملحق الثانى

مذكرات مرفوعة للقبطان أدموندس لتذكره في الوقت المناسب له برؤوس أهم الموضوعات التي تبادلناها في أحاديثنا السياسية على ظهر سفينته

(١)

الخطاب المرفقة به هذه المذكرات موجه للورد النبيل «[١]» . وقد يظهر لاول وهلة أنه ليس الا رجاء بسيطاً عادياً في الاهتمام بنا معشر المصريين التعساء . ولكنه يجب ان يعتبره فى الحقيقة ملخص الاحاديث السياسية التى دارت بيننا على ظهر السفينة هذا ولما كان الاسهاب في شرح خطتنا في الوقت الحاضر أمر أقل ما فيه الرعونة فان هذه المذكرات القصيرة المكتوبة على عجل قد تكفى على الاقل لتذكيرك بأهم موضوعات أحاديثنا ، ومتى حان زمن ابلاغك اياها اما مباشرة لحكومتك أو للورد النبيل فالمصريون لوثوقهم بما انطوت عليه سجيتك يدعون لحسن فطنتك بعنه على الاهتمام بأمرهم . حتي يكون لنا مما يكتبه للوزارة البريطانية أو مما يقوم به عند عودته لانجلترة مسند نستند اليه لدي حكومته . وليثق بأنه سينتصر لقضية فيها منافع لامته . وأى قضية اليق بسعى لورد نبيل مثله !

(٢)

واذا سلمنا بأن ما سيعرضه الوفد المصرى لدى الحكومات الاوربية

---

(١) الظاهر ان لاسكاريس ظن ان ادموندس قد يكتب اولا لرئيسه المباشر اللورد كيث لا مباشرة الى اللورد الاول للبحرية كما فعل .

على تلك الحكومات باسم المصريين الذين فوضوه قد يظهر قليل الاهمية أمام أعينها فلتعترف معنا على الاقل — أيها القبطان — ان الدول لن تعمل أبداً عملا أمجد وأنبل من ان تبدد بقرار سياسى واحد ظلمات الجهل والوحشية التي تكاثفت على هذه البلاد الذائعة الصيت . تلك البلاد التى يمكن القول عنها اجمالا أنها كانت موضع قيام الحضارة التى نقلها اليونان عنها ومن اليونان وصلت لنا . واذا عجزت مصر بعد زوال عزها وازدهارها عن ان تثير شعوراً بعرفان صنيعها وما قدمته من خير فلتثر على الاقل عطف الدول الاوربية عليها حتى اذا ما كان ذلك وردوا اليها أمرها أمكنها أن ترضى جميع الدول التي تطمع فيها ولا تصاب بسبب ذلك أى واحدة منها في مصالحها .

(٣)

وقد يحل زمن ليس بالبعيد ترضى فيه الدولة البريطانية عن هذا الحل (للمسألة المصرية) . . . . وفى هذه الاثناء قد تقترحه عليها الحكومة الفرنسية . عندئذ يجب على الحكومة الانجليزية ان تعلم ان الاقتراح نتيجة جهود الوفد المصرى فعليها اذن ان لا يريبها أمره . . فان المصريين «[1]» . . ولا نظن ان فرنسا تتقدم بهذا المشروع السياسي الا على سبيل المجاراة والواقع ان تحقيقه ليس في صالحها كما هو في صالح انجلترة . ومما لاشك فيه ان حكومة الجمهورية الفرنسية لا تزال على ما كانت عليه من الرغبة

(١) جملة غير تامة فى الاصل .

في تملك مصر .

(٤)

تتداعى الامبراطورية العثمانية في جميع أجزائها للانحلال . ويهم الانجليز اذن قبل حدوث هذا ان يدبروا لانفسهم من الوسائل المؤكدة ما يكفل لهم الاستفادة من هذا الحادث المهم عند وقوعه . واذا تبين لهم استحالة استعمارهم - كما استحال هذا على فرنسا - (فليس عوضاً عنه) خضوع مصر المستقلة لنفوذ انجلترة صاحبة التفوق فى البحار المحيطة بها . وليس من شك في ان الاستقلال يعيد لمصر رخاءها . ولكنها لن تكون الا دولة زراعية تستمد غناها من الحاصلات الوفيرة التى تنتجها أرضها الخصبة ومن كونها المخرج والمدخل الوحيدين لتجارة افريقية الوسطى . ولا بد من ان انجلترة بحكم مركزها في الهند تهتم جداً بالمتاجرة مع مصر وما حولها من المناطق فلتستفيد بذلك أكبر استفادة مما اختصت به مصر من المزايا .

(٥)

وكان مراد بك يقول — وربما كان على حق فى قوله — ان كفار الغرب (كذلك سمى الامم الاوربية) قد صاروا يعرفون مصر أكثر من اللازم وان الكل يسعى لامتلاكها وانها ستكون دائماً مثار اختلافهم . قد يقال ان انجلترا لا حاجة بها الى ذلك الامتلاك اذ ان سيادتها البحرية تحتم ان تكون كل تجارة مصر فى يدها وانها بذلك يكون لها

ما تريد من نفوذ فى مصر . ولكن ماذا يكون من أمر هذا النفوذ اذا رجعت فرنسا كما كانت حليفة الباب العالى الطبيعية وأخذت الدولة العثمانية تجرى على سياسة ارضائها أكثر من ارضاء انجلترة ؟ ألا تذهب الدولة فى هذه الخطة فتغلق أبواب مرافئها فى وجه الانجليز ؟ اليس من الممكن ان يضغط الفرنسيون على الترك براً فيحملوهم على الامعان فى عدائهم للانجليز وتحطيم تجارتهم فى أراضى الشرق الادنى وفى البحر الاحمر ؟

(٦)

أما عما يختلج نفوس المصريين من عواطف نحو الفرنسيين فمبعثها ما اتبعه هؤلاء من طرق فى حكمهم أثناء احتلالهم البلاد . ولا حاجة بى للكلام فى هذا لانى أعتقد أنك تتذكر بسهولة ما دار بيننا من حديث فيه . كل شىء اذن يبرهن — الاسباب السابقة ، وما يشعر به المصريون نحو الانجليز بعد ان أمكن لهم تقديرهم حقاً — ان مصر المستقلة لا تستطيع الا ان تكون موالية لانجلترة . فعلى هذه اذن ان تسمح سياسياً على الاقل باستقلالها هذا اذا لم تستطع تأييده بعد حدوثه . يملى هذه الخطة ما تتوقعه من حوادث في المستقبل . . .

(٧)

فرضنا ان حكومات الدول الاوربية سمحت باستقلال مصر . كيف يحكم المصريون أنفسهم ؟ وكيف يدافعون عن استقلالهم ؟

(١) لا يسمح لنا تعجلنا فى تحرير هذه المذكرات بتفصيل الخطة

التى يفكر فيها الوفد المصرى لحكم البلاد . ويكفى الآن ان نلاحظ ان المسألة هنا ليست مسألة انقلاب منشؤه استنارة الامـــة واحتكاك أراء فلسفية بعضها ببعض . لا يقوم نظام الحكم الجديد على شيء من هذا ، بل تضع قواعده الظروف القاهرة وتخضع له رعية مسالمة جاهلة لا يعرف أفرادها الآن ، أو يكادون لا يعرفون الا عاطفتين خليقتين : المصلحة والخوف . فان أمكن الحكومة الجديدة (وليس هذا بالامر العسير) ان ترفه من عيش الناس بعض الشيء وان تزيد كسبهم قليلا فمن المحقق أنها تجد منهم نصراء متحمسين ، او ليس أي نظام أفضل من الاستبداد التركى ؟ لتكن اذن الحكومة الجديدة عادلة حازمة وطنية كما كانت حكومة الشيخ همام الربي في الصعيد (وقد حدثتك عن تاريخه) ولتثق عند ذلك بأنها ستحترم وتطاع وتحب .

(٢) كيف يدافع المصريون عن استقلالهم ؟ ماذا يصنعون لو اعتدت عليه دولة أوربية ؟ لا تتوقع حدوث شيء من هـذا الا بعد زمن طويل وعند ذلك يكون قد تم تنظيم الجيش الوطنى وجعله بحيث لا يستطيع رد الاعتداء . اما ان كان الاعتداء من جانب الترك او المماليك فانا نعتقد ان الدول الاوربيـة تحظر عليهم مس استقلال مصر . هذا من جهة ومن جهة أخرى فان المصريين يمكنهم ان يستخدموا جيشاً أجنبياً من ١٢٠٠٠ الى ١٥٠٠٠ جندي وينفقوا عليه . ويكفى هـذا الجيش لصد الترك عند حد الصحراء ولسحق المماليك في مصر نفسها ويكون هذا الجيش الاجنبي

أيضاً نواة الجيش الوطني . وهذا لما نعلمه من تأثير الذهب في العثمانيين وأنهم يعملون أي عمل للحصول عليه فاننا نستطيع ردهم عن مصر ببذله لهم . وكان المماليك يستخدمون المال كلما رأوا سحب السياسة تتلبد في القسطنطينية وتنذرهم بشر مستطير .

وينبغي ألا يفوتنا ان نذكر ان المصريين منقسمون بين عدة طوائف وان هذا الانقسام يتيح الوسائل لدفع هذه الطوائف بعضها ببعض فتتكافأ بذلك قواها . وللوفد المصري صلات بهذه الطوائف على اختلافها ولا ينحاز لواحدة منها دون الاخرى . وهذه الصلات مستورة وستظل مستورة تماما عن الحكومة التركية في مصر ولا بد من هذه الحيطة ازاء حكم مستبد يأخذ الناس بالشبهات . ولو عرف الترك حقيقة الامر لما ترددوا في الفتك بأخوان الاستقلال عن آخرهم . والذين هجروا مصر مع الجيش الفرنسي من هؤلاء الاخوان قد تحدوا غضب الترك (وأمنوه) ولكن اخواننا في مصر حالهم غير هذه . هم تحت السيف والعصا . فليس امامهم الا المواربة والظهور بمظهر عبيد السلطان المخلصين .

(٨)

سيبذل المصريون عامة ووفدهم لدى الحكومات الاوربية (خاصة) كل ما يستطيعون من جهد لتخليص أنفسهم بشكل ما من النير الذي يثقل حمله على بلادهم التعسة . ولكن اذا خاب سعيهم وشاء القدر ان يملك الترك هذه الاقاليم الجميلة الشهيرة وعرضها بذلك لتجدد الاغارات عليها

وجاءت معاهدات الصلح العام بين الدول على عكس ما يشتهون فأقل ما يرجوه المهاجرون المصريون من الدول المتعاهدة ان تدبر لهم ضماناً يقيهم على الاقل ، اذا عادوا لوطنهم ، شر انتقام الترك منهم .

(٩)

هذا ولو ان الوفد المصرى لدي الحكومات لن يعمل الا فى تحقيق مشروع سياسى فيه نفع جميع الحكومات بما فيها الحكومة التركية (وليس تضمينا الحكومة التركية على غرابته من شطط القول فانا يمكننا البرهنة على صحته) فقد تعرض أحوال لا بد فيها من المحافظة على سير المفاوضة . لذلك فانا نرفق بهذا « شفراً » يستعمل في مراسلاتنا عند الحاجة اليه .

(١٠)

ويرى الوفد المصري حرصاً على تحقيق ما يصبو له من ابلاغ المفاوضة غايتها لزوم كتمان أمر ما فاتحناكم فيه من ممهدات لها وما قد تبلغونه للورد النبيل عن فرنسا وعن أى امرىء فى مقدوره عرقلتها . وذلك ان خطة الوفد ان يسعى فى أوربا كى تكون فرنسا البادئة بعرض المقترحات الاولى (الخاصة بالاستقلال) على انجلتره ، وتكون انجلتره عندئذ قد اقتنعت (وهذا الاقتناع ثمرة أحاديثنا معكم وسعى اللورد) بما في الاستقلال المقترح من مزايا سياسيه فتؤيده . وبهذه الطريقة لا يتعرض الوفد المصرى لان يرى الحكومة الانجليزية ترفض المشروع تحت باعث من نفور الامتين احداهما من الاخرى او حذر دسيسة من دسائس الجمهورية (الفرنسية) .

(١١)

هذا وكى تهسل مراسلتنا ونحن في فرنسا او في غيرها من البلاد يمكنك أيها القبطان ان ترسل ما تريد للسنيور الكونت انطون كاسيس المقيم فى تريستا وهو يتولى ارسال الرسائل حيث يقيم الوفد ، على ان يوضع تحت عنوانه عنوانى . أما ما قد يرسل لى (من غيركم) من انجلترة فان وصولنا الى باريس يذيع أمرنا فلا تصعب معرفة أين أقيم . وبهذا يسهل تسلمى ما قد تكتبه لى الحكومة (الانجليزية) . ولكن تلزم الحيطة التامة في هذا الامر حتى لا تثار شكوك الحكومة الفرنسية بالمرة .

على ظهر السفينة بالاس فى ٢١ سبتمبر سنة ١٨٠١

الملحق الثالث

من ثم افندس بالنيابة عن الوفد المصري للقنصل الاول بونابرت الى القنصل الاول للجمورية الفرنسية من الوفد المصرى الكثير الحب له محجر مارسيليا فى اوفنديمير من السنة العاشرة « ٢٣ سبتمبر ١٨٠١ »

فى أيام العالم الاولى ، في تلك العصور البعيدة المجهولة ، عندما كانت فرنسا لا تختلف كثيراً عما صورته الطبيعة ولا يظهر منها للناظر الا جليد وغابات ، كانت مصر الزاهية المتحضرة تلقى دروس العلم والعرفان على متشرعى الاغريق . ثم دار الفلك دورته وشاء القدر ان يفد مصريو اليوم الحاضر أحفاد معلمى الحضارة بالامس الى فرنسا وهى تحت حكمك الخالد الذكر ليدرسوا نظم أمة يحبونها ويتعرفوا ما اهتدت اليه من وسائل

لا عهد لغيرها من الامم بها ، تلك الوسائل التي مكنت جمهورية ناشئة من صيانة ما كسبته في ميدان الحـــرب بما استحدثته من نظم سياسية جديدة . . . وكما ان سولون عند عودته لبلاده من مصر شرع للاغريق ، كذلك الوفد المصري الذى فوضه المصريون الباقون على ولائهم لك سيضع لمصر ما ترضاه لها من نظم عند ما يعود لها من فرنسا . يكون هذا أيها القنصل الاول اذا تنزلت من أجل مجدك ولنفع الجمهورية السياسى فمددت يد المساعدة للمصريين البؤساء الذين حطمت فى الماضى أغلالهم والذين عادوا ينوءون بها من جـــديد وأحسنت استقبال وكلائهم فى باريس . وفى العاصمة سيكون استقبالنا حفلا شرقياً يجدد ذكرى فتح عظيم نلته ثم فقدته . ولا بد أنك تحس احساساً شديداً بألم ما فقدت فأمر في معاهدات الصلح العام ان تكون مصر مستقلة تعوض عليك خسارتك مائة مرة . هذه هى أمانينا وهذا ما أخذنا على أنفسنا ميثاقاً به .

عن الوفد المصرى : وكيله — نمر افندى

الملحق الرابع

من نمر افندى لوزير الخارجية الفرنسية « تاليران »

« نفس التاريخ كالملحق السابق »

« بعض مما جاء فيه »

سينزل فى مرافىء الجمهورية الفرنسية عدد غير قليل من مهاجرين شرقيين تركوا بلادهم مع ذلك الجـزء من جيش الشرق الذى تم جلاؤه

عن مصر . والوفد المصرى بالرغم من أنه قد حرم رئيسه الجنرال يعقوب الذى مات أثناء السفر يعلن كل مايحس به من ولاء وحب للجمهورية الفرنسية ويرى من واجبه ان يلجأ اليك أيها الوزير لتتفضل وتضعه هو وهؤلاء المهاجرين فى كنفك — والوفد المصرى الذي ينوب عن الامة المصرية لدى الحكومة الفرنسية يمثل وحده كل ما يجول فى نفوس مفوضيه العديدين من شعور بصالح الجماعة وما يملأ أفئدتهم من أمانى وما يملكون من اصالة تدبير ونفوذ وثروة ويعبر عما أجمعوا عليه من رغبتين : الاولى ، سحق القوة الغشوم التى تستبد بهم من جديد ، الثانية ، وضع أملهم في فرنسا — ولا يرى الوفد المصري فى الوقت الحاضر فائدة فى الاسهاب . فهو يستطيع في جلسة واحدة فى باريس ان يبين عن مقاصده ما لا يستطيع في عشرين مذكرة سياسية . ونحن العرب نقدر في الكلام على ما نشاء وان كنا في الكتابة لا نبلغ الا جهد المقل . هذا الى أننا غير غافلين عما توجبه علينا كثرة شواغلك السياسية من الاجمال فى الرسائل . ونرجو التفضل بالرد على كتابنا هذا . وان تسمح لنا ان تفضلت باستقبالنا فى باريس ان تقابلنا بزينا الشرقي . فالمسلمون منا يشق عليهم خلع زيهم .

والوفد المصرى يعلم ان وقت القنصل الاول الذى تصدر عن ارادته أمور الحكم حتى في جزئياتها وتستظل الدولة في ظله الظليل أثمن من ان يصرفه في التفكه بقراءة ما يرد اليه من الرسائل الخاصة

ولكننا نرجو ان يقدر ان وفدنا جديد فى بابه وأنه يصل الى فرنسا فى ظروف خاصة وان كتابنا له «١» المرفق بهذا له ما له من أهمية فيتنزل لتسلمه منا ويتأمله بحكمته البعيدة الغور .

(١) المقصود من هذا الكتاب المنشور فى الملحق الثالث .

السيد عمر مكرم

اجتماع أول مجلس نيابي (ديوان المشايخ)

السيد عمر مكرم

١٧٥٥ — ١٨٢٣ (٦٨)

مولده : ككثير من العظماء العصاميين لم يهتم الكتاب بتاريخ حياتهم الا بعد وفاتهم وظهور صيتهم فلم تعرف سنة ميلاده تماماً ولو ان بعضهم قدر لميلاده سنة ١٧٥٥ — وقد كانت ولادته فى اسيوط من أسرة شريفة يقال انه لا يفوقها فى شرف مجدها الا أسرتى السادات والبكرى .

وقد تعلم على أسلوب عصره وتخرج في الازهر وحصل على قسط من العلوم بمقدار انتشار التعليم فى ذلك القرن . ولكن كانت عنايته بالاطلاع واضحة حتى انه اقتنى مكتبة كبيرة لا يزال بعض كتبها محفوظاً بدار الكتب المصرية يحمل اسمه . غير انه لم يشتغل بالتدريس ككل متخرجى الازهر واذ كان اهتمامه بالسياسة يشغله عن التصنيف والتأليف فلم ترى له كتب حتى عابه على ذلك بعض منافسيه بأنه كسول وصاحب حرفة وجابى وقف .

وقد شاهد حكم على بك الكبير ثم شاهد فتوحاته والانقلاب الذى أحدثه محمد بك ابو الذهب وزوال حكمه فطغيان ابراهيم بك ومراد الشريكان المتساويان في الظلم والاضطهاد .

بدؤه كسياسى : حضر القائد حسن باشا الجزائرلى التركى لتأديب ابراهيم بك ومراد بك مع جيش كبير اضطرهما للهرب الى الصعيد حيث استوطنا اسيوط فعرفا السيد عمر مكرم فلما رجع القائد التركى سنة ١٧٩١ تاركا الحكم فى أيدي حـــزب الامراء الذي لم يستطع الاحتفاظ به طويلا ، فانتهز الفرصة ابراهيم ومراد وأرسلا السيد عمر مكرم مندوباً عنهما ليفاوض حزب الامراء فى رجوعهما واشتراكهما فى الحكم . حضر السيد عمر الى القاهرة ومكث بها يومين اثنين تمكن فيهما من تمهيد السبيل لعودة صديقيه الى الحكم . وان كانت عودتهما عودة للظلم والطغيان ولكن عمر مكرم كان يرى فيهما أقل ظلماً من الحكومة التى قامت قبلهما ، وكان طبيعياً ان يكافىء على عمله هذا من الحاكمين . فلما توفى السيد محمد البكرى نقيب الاشراف أسندت اليه النقابة بالرغم من عدم وجود أى قرابة بين النقيبين السابق واللاحق فصار اسمه يتردد على كل الالسن يشوبه الاحترام لصداقته بالحاكمين بأمرهما ، ولما ثار الشعب على طغيان ابراهيم ومراد نذكر ان السيد عمر مكرم لم ينبري لقيادة الشعب بل ولم يساهم فيه بأي مجهـــود وذلك لانه لم يكن قد انغمس تماماً فى تيار الوطنية كما انه لم يكن ليجسر على محاربة دولة مراد وابراهيم وهو الساعى لتثبيتهما وما كان ليجسر على محاربة مراد وابراهيم وهم الغامران له من مجدهما الباسطان عليه من سطوتهما .

ولكن كان عمله في ذلك الوقت الاجتماع بالشيوخ السادات والبكري

والشرقاوي كى يبسطون له طلبات الشعب عاملا على اقناع الامراء بها ساعياً لتحقيق العدل حتى اشترك في كتابة الوثيقة التاريخية التي سيأتي ذكرها فيما بعد وفيها يملى الشعب ارادته فيتعهد الامراء بأن يعدلوا ويبتعدوا عن البغى والظلم متكفلين عدم امتداد أيديهم الى أموال الناس سائرين في الحكم سيرة حسنة .

الحملة الفرنسية : لم يرعو الاميران بعد ذلك بل عاودتهما نكسة الظلم واذ ابتديء الشعب ان يعاود الضجيج وابتدأت جموعهم ان تزرع بذور الثورة فى البلاد اذ وصلت الاخبار بنزول الجيش الفرنسى فى الاسكندرية فسكتت ثائرة الشعب ونظر الى أميريه لعلهما يكفران عن أثمهما بصد العدو المغير ، وجاءت الرسل تخبر الناس والاميرين ان العدو لم يكن في هذه المرة ككل الاعداء الذين عهدوهم فى الغارات السابقة اذ قد استولوا على الاسكندرية بلا أي مقاومة تذكر . وكان الشعب فى القاهرة كلما تصله هذه الاخبار يضطرب لا سيما بعد ان عرف ان الاميرين لما يتحركا لانقاذ الاسكندرية بل تركاها لقمة سائغة للعدو المغير وكان كلما ذهب مشايخ الشعب الى مراد وابراهيم طالبين ان يتحرك جيش المماليك لصد الغارة قابلهم مراد بكل استهتار قائلا « سأحطم هؤلاء الفرنجة تحت سنابك الخيل » وتحت الالحاح الشديد ابتدىء ان يتحرك بجزء من جيشه الى الشمال وحمل جزءاً آخر فى النهر فالتقى بالعدو عند شبراخيت فى ١٤ يوليو أى بعد نزوله فى الاسكندرية باحد عشر

يوماً . ولكن كانت هذه الموقعة درساً قاسياً لمراد فتأكد انه لا يستطيع ان يحطم الا نفسه فهرب الى امبابه محصناً البر الغربى منها بشيء من الحذر والحيطة . اما ابراهيم فكان قد ذهب يجيش له الى الغرب ووقف عند بولاق ليلاقي العدو قبل دخوله القاهرة .

رجال ... ورجال : هاهم المماليك أمراء الشعب وحكامه فى اضطراب عظيم فكل منهم كان قبل الحرب يسرع باخفاء جواهره وكنوزه نافلا اياها بعيداً عن الاعين ثم ذاهبين الى ميادين القتال وعند تلقى أول صدمة يكروا راجعين ناجين بأنفسهم حرصاً على الحياة .

هاهم المماليك ، أمراء الشعب وحكامة وجنود الامن في البلاد لا يحفظون البلاد في أمن من هجوم الهاجمين ، بل يفروا غير مخلصين فى الدفاع ، غير جادين فى القيام بالمفروض عليهم .

وها هو عمر مكرم ، ابن الشعب وأحد أفراده يرى هذا فيعز عليه ضياع الوطن وهو ليس برجل حرب حتى يخرج بنفسه الى الميدان فينادى الشعب لحماية نفسه بما استطاع محرضاً اياه ومحمسا له لعله يستغنى في الدفاع بنفسه عن الهاربين .

وكان جواب الشعب باهراً ونبيلا ، اذ لبى نداء الواجب فخرج كل رجال القاهرة وضواحيها ولم يبق الا الضعفاء والنساء .

نشر السيد عمر مكرم علماً كان العامة يسمونه « البيرق النبوى » ونزل من القلعة الى بولاق والناس حوله ألوفاً مؤلفه بسلاحهم الساذج البسيط

(عصى ونبايت) ولكن بقلوب أحمى من الحديد والنار يهللون ويكبرون بالالسنة والطبول . ووقفوا وقفة المنتظر المتحفز على ضفة النيل الشرقي على مقربة من جيش ابراهيم منتظرين ما يصنعه مراد ... الجبار .

موقعة امبابه : لم يطل انتظارهم فقد ظهرت طلائع الفرنسيين في أربع فرق يقود احداها دزيه وأخرى رينيه وثالثه بونابرت ورابعه مينو ووقفت الفرق الاربع موقف الانتظار فلم يسع مراد الا الهجوم مع ثمانية آلاف ولما أصبحوا على مرمى رصاص البنادق حصدت أرواحهم حصداً فلم تنفعهم الشجاعة بل ذهلوا وفروا اذ حصروا بين ثلاث فرق منها تعمل فيهم تقتيلا من غير تلامس للاجسام ولا كر وفر في الميدان . وزحفت الفوقة الرابعة بقيادة مينو على امبابه فألقت بفلول الهاربين في النيل .

ماذا يفعل ذلك القلب الذي يرجو ويأمل ... قلب عمر مكرم الذى كان يرجو فى حكامه شجاعة ويأمل لها نصراً ... فيرى لاحدهما هزيمة وفي الثانى جبناً وخوراً ، ماذا يفعل اذ يرى ابراهيم هزيمة مراد فيهرب بلا حرب ولا قتال تاركا الشعب أعزل منكود مضطرب مروع . وقلق الشعب وعلى رأسهم عمر مكرم وبينما هم فى حيرة من أمرهم اذ تحترق احدى سفن مراد فتنفجر وترسل دوياً هائلا مروعاً يرهب الشعب فيتعالى صراخهم وضجيجهم ويعم بينهم الاضطراب ويصيح البعض فيأوى بالهرب فينفلت من يبغى الحياة ويتبعه الباقون مشتتين الى الصحارى والقفار .

التسليم : طلع نهار اليوم الثاني على مشايخ القاهرة مجتمعين متسائلين ماذا يجوز ان يفعلوا ولما كانوا رجال علم لا حرب ولا قتال فقد قرروا التسليم وأرسلوا رسولين الى بونابرت مستعدين لاستقبال الفاتح ومستعدين لتقبل الحكم الجديد . وبعد قليل أعلن الفرنسيين الامان للهاربين الفارين فعاد الكثير من الزعماء الذين هاجروا مع عمر مكرم ولكنه لم يعد معهم أمثال الشيوخ الشرقاوى والسادات .

وأيضاً رجل ... ورجال : لقد كان من السهل رجوعه ، بل كان يتمنى الفرنسيون لو كسبوا رضوخ عمر مكرم واطمئنانه لحكمهم لبعد صيته بين المصريين وسماعهم بزعامته على القوم قبل دخولهم . وبالرغم من ترديدهم أنهم يبغون صداقة أهل مصر وانهم انما أتوا لتطهير البلاد من طغيان المماليك . وبالرغم من سماعه ان بونابرت اختاره بين العشرة الذين كون منهم ديواناً يباشر الحكم الى جانبه ، ولكنه لم يكن ينظر الى نفسه لانه شقى بنفسه فى النفى والتشريد من الحرمان والفقر ومعاناه الاهوال والشدائد بل كان ينظر الى بلاد اذ شهد أول تحركها نحو التحرر وذكر حقها فى الحياة الحرة المستقلة ، فلم يجد له وسيلة الا ان يضحى براحته فى سبيلها لانه كان ينتظر فرصة لا ليعود لينعم بل لتكون عودته للجهاد .

انه كان أنبل قصداً من الهاربين الكبيرين ابراهيم ومراد فقد هربا لانهما لا يملكا الحق فى العودة الى الحكم ولو كان بالامكان عودتهما

للحكم لعادا . فهما يعبدان الحكم لا الشعب وهما يدافعان عن الحكم لا الشعب . وهما هربا لان الحكم فر منهما لا ليعملا من أجل الشعب . لقد كانا يبحثان عن الحكم ليعاودا الطغيان من جديد .

عودته الى مصر : لقد تقهقر عمر مكرم الى العريش وانتظر شهوراً حتى زحف عليها بونابرت فى ١٧ فبراير سنة ١٧٦٩ فتقهقر الى يافا مع الجيش التركى المهزوم وبقى فيها حتى افتتحها نابليون وسلم له أهلها فأكرم المصريين منهم وكان هو على رأسهم وأرسلهم الى مصر مكرمين .

لقد رأى عمر مكرم بعيني رأسه ستة آلاف رجل يلقون فى الصحراء ويطلق عليهم الرصاص فلا يبقى فيهم نفس حى ، ولقد رأى كل مدينة يهرب اليها تتهار وتستسلم لحكم ذلك الجبار ولقد رأى انه ليس بمستطيع لجيش ان يعاند أو يقاوم حكم العلم والنظام أو حكم السيف والنيران ولكن قلبه لم يلن . أو عزمه الصلب لم يتفتت فعاد وهو على عزم ان يعاود النضال . واذ لم يكن هناك فائدة في اظهار الكراهة والعداوة فقد صمت وسكن ولكنه أبى على نفسه مشاركتهم فى الحكم أو ان يكون طوع أمرهم كما رغبوا . فلم يدخل الديوان ولم يسترجع مكانه فى نقابة الاشراف ولا في نظارة الاوقاف التي كان يدير أمورهما من قبل . بل لقد تعفف عن ان يطالب بأملاكه حتى تنازل الفرنسيون عن بعضها له فعاش منها بالقليل تاركا لهم الكثير .

* * *

ثورة مارس سنة ١٧٩٨

كان تحطيم الاسطول الفرنسى فى ابو قير ثم خروج نابليون خلسة ورجوعه الى فرنسا ثم توارد الاخبـــار بمعاودة الترك للهجوم على مصر واشمئزاز كليبر القائد المعين بدون علمه على مصر أثر كبير في نفوس المصريين وبالرغم من نزول الانجليز الى الارض المصرية وهزم نابليون لهم قبل سفره ، فان الشعب سمع أنهم لا زالوا مرابضين في المياه المصرية . وظهر ميل كليبر للانسحاب من مصر واضحاً باتفاقه مع مراد بك على توليته على الصعيد في ظل الحكم الفرنسى ثم ابتدأ ان يفاوض الترك والانجليز على الانسحاب بشروط لا تكون مخـــلة بالشرف الفرنسى فاتفقوا مع السير السدني سمث على شروط مناسبة فنقضتها انجلترا ثانية . وساء حال الفرنسيين المحصورين في مصر سوءاً زاد في هياج الاهلين . فالانجليز في البحر والجيش التركى يساعـده ابراهيم بك وصل حتى قرب القاهرة ومراد بك وصل من الصعيد حتى الجيزة .

كان فى عزم الاهالى ان يتكفلوا بنفقات سفر الحمـــلة الفرنسية وابتدأت عملية الجمع غير ان كليبر خيب ظنهم وفاجأهم بهجومه على الجيش التركى فهزمه محاولا انقاذ شرف فرنسا بعمل حربى فبدد الآمال التي كانت معقودة في نفوس الاهالى بتخلصهم من هذا الحكم وزادها اشتعالا رجوع كليبر الى القاهرة معتزاً بنصره بعد ظنهم ان خروجه سيكون بلا عودة وانفجرت حفيظتهم فصاروا ينادون بزعمائهم لمكافحة العدو الذى

لا يبغى فكاكا ، فاشتعلت العاطفة الوطنية في الصدور . ووجد السيد عمر مكرم نفسه مدفوعاً لتلبية النداء فأرسل صيحته في الوادى جامعاً حوله وابتدأ يتحرك فلم يفتر له عـــزم ولم تبطل له حركة وانضم اليه أمراء المماليك بجنودهم عاملين على تحصين القاهرة واقامة المتاريس . وفوجىء الفرنسيين العائدين فرحين بالنصر بامتناع القاهرة قبولهم فيها فأرسلوا الرسل ليفاوضوا الشعب ليرجع عن ثورته فلم يقبل بل طلب جلاء شاملا عن كل الاراضى المصرية ، ولما سمع كليبر بذلك زمجر وأقسم انه لابد ان يبيت فى القاهرة ولو مع آخر جندى فرنسى . وأمر جنده بالهاب الاهالى من سعير الحـــديد والنـار بل أمرهم باستعمال منتهى القسوة ، فألقوا بالنيران على المساكن واقتحموا المتاريس وأمهلوا من يرغب في التسليم أو يبغى المهاجرة فولى عمر مكرم هارباً مع بعض الاتراك وكان عقابه ان نهب بيته وعقاره وتم استسلام الاهالى الذين كلفوا بدفع غرامة مالية كبيرة بعد أكثر من اربعين يوما .

فظائع : كان للفرنسيين فى مصر عدة فظائع أثارت اشمئزاز العالم . فقد الهبوا وقت اخماد الثورة كثير من المنازل ، وفرضوا ضريبة (غرامة) عملوا على تحصيلها بمنتهى القسوة فان عشرة ملايين فرنك ليست بقليلة . ونهبوا بيوت الامراء المصريين المهاجرين ، فلما ان قتل كليبر أعدموا القاتل بمنتهى الوحشية مستعملين « خازوق » العصور الوسطى بل وقتلوا أربعة آخرين لمجرد الشبهة او الظن بعلمهم خبر الجريمة . رافعين الرؤوس

الاربعة المقطوعة على أعمدة لتكون عبرة أخرى مما أثار اشمئزاز القوم، بل فرضوا غرامة أخرى كعقوبة وثبتوا مراد بك على حكم الصعيد لا لاخلاصه لهم، بل لانه لم يلبي رجاء الشعب ولم يزحف الى مصر لمعونتها، وكانت رؤيا الشعب لتقطيع الحلبي والتشنيع بالاربعة الآخرين وغرامة الخمسة ملايين فرنك الاخيرة باعثة على هرب الكثيرين. وكان الفرنسيون يشعرون فى عهد « مينو » بحرج مركزهم فاندفعوا في شهوة الشر ليشغلوا أنفسهم وليحصلوا على أكبر قسط مالى يخفف عنهم ضيقهم ويعوض عليهم خسارتهم.

نهاية الحملة: فى مارس سنة ١٨٠١ نزل على مقربة من الاسكندرية خمسة آلاف انجليزى كانوا مقدمة لجيوش أخرى تجمعت في آسيا الصغرى وفى الوقت نفسه تجمعت جيوش الترك في الشام فبلغت ثلاثين الفاً وبدأت تتحرك نحو القاهرة.

وابتدأت تتلاحق الهزائم « بمينو » فعاد من الاسكندرية الى مصر محصناً اياها وخلفه الانجليز يزحفون متجهين الى القاهرة. وكان الاتراك قد اقتربوا هم أيضاً من الجهة الشرقية وحاصروها فلجأ الفرنسيون الى المفاوضة للتسليم وتمت المعاهدة فرحلوا من رشيد والاسكندرية فى منتصف سبتمبر من ذلك العام.

وبذلك عادت مصر ثانية الى حكم تركيا بعد ثلاث سنين وشهرين وعاد مع الجيش التركى عمر مكرم ومن هرب معه كالسيد المحروقي وغيرهم

وكانت عودته ودخوله الى القاهرة باستقبال عظيم وفى نفس اليوم الذى شيعت الحملة الفرنسية آمالها فى مصر .

دروس الحياة : كانت للايام التى قضتها الحملة فى مصر أثرا بارزا فى نفوس المصريين ، ثم خرجت الحملة بعد ان قوضت آثار الحكم القديم وخلقت فى نفوسهم شعوراً بالعزة القومية تعلموها من خيبة الامل فى الوجهات الثلاثة الآتية :

اولا : عجز السلطان عن محاربة نابليون ولجوئه لمساعدة الانجليز دائماً فهدم اعتزازهم بدولة آل عثمان لما رأوا ما عليها من ضعف .

ثانيا : هرب الامراء المماليك بعضهم شرقاً وبعضهم غرباً لا يثبتون فى موقعة ولا يحرصون على جهاد بل كان همهم الاكبر البحث عن الحكم والسيادة أين كانت وظن الشعب أنه لو كانت أنتهم نجدة من ابراهيم أو مراد وقت ثورتهم فى القاهرة لارغموا الفرنسيين على الخروج .

ثالثا : مهما سمى الحكم الاجنبي ومهما امتلىء عهده بالاصلاح والتقدم فانه لا يخلو من الظلم والقسوة والشناعة ولهم في الفظاعة الفرنسية ما ينسيهم كل الاصلاح الذى أتوه .

فلما ان عاد عمر مكرم وأصحابه عجبوا للتغير الكبير الذى طرأ على التفكير المصري فبدأت من ذلك العهد صورة جديدة ، ولكن .... هناك أيضاً الخليط العجيب الذى يسمى بالجيش التركى وهو خليط من أتراك واكراد وسودانيين وارنؤود وشوام ومغاربة فرحوا بطرد

الفرنسيين فطالبوا بالثمن من الغنائم كعادة محاربي القرون الوسطى ، فكانت الايام التي تلت خروج الحملة من أدق الايام وأحرجها وأشدها . ولا سيما ان حسين باشا قبطان العثماني كان مشغولا بالقضاء على المماليك الذين لجأوا الى الانجليز الرابطين في المياه المصرية وعرفوا نيات العثمانيين تجاههم فأدركوا ان لا مسالمة بينهما بعد الآن حتى أتى حكم خسروا بعد سفر الصدر الاعظم التركي وقائده حسين باشا قبطان . وكان خسروا ضعيفاً متراخياً مهملا مدللا ولكنه أمام عداء المماليك له لم يقو الا حربهم فعاني منهم الامرين وزاد الطين بله شراسة جنده الذين هزموا عند ارمنت ورجعوا مولين الادبار الى القاهرة والمماليك من خلفهم يزحفون مطمئنين الى ان الشعب قد عهد حكمهم وفضله عن شراسة هذا الخليط العجيب من الجنود . وتالت الهزائم بجنود خسروا حتى أرسل لمفاوضة الامراء المماليك الذين لم يقبلوا الحكم تحت الراية العثمانية بل طلبوا استقلالهم بالصعيد (على الاقل) ووالوا الزحف ووقع خسروا فى مأزق حرج لان الجنود المهزومة رجعت لتطالبه بأجرها والخزينة خاوية والحرب تتطلب نفقات للذخيرة والاسلحة فزاد لومه على الجنود المنهزمة فثاروا عليه فهرب من القاهرة تاركا اياها كالبركان المضطرم وكان أشد الطوائف ثورة فى الجيش الجنود الارناؤود وكان على رأسهم طاهر باشا ومحمد على ، فلما هرب خسروا لم يقبلوا الا ان يكون الحاكم منهم وأرسلوا الى الاستانة لطلب الموافقة ، فهاجت عليهم طائفة الانكشارية الذين

عدوها سبة لهم ان لا يكون الحاكم منهم وقتلوا طاهر باشا ودعوا خسروا للعودة فتحصن الارناؤود فى القلعة وعلى رأسهم قائدهم محمد على باشا .

محمد على فى الميدان : كانت القاهرة كزوبعة في ذلك الوقت فرأى محمد على ان يتفق مع الامراء المماليك الذين وصلوا الى القاهرة يبغون الهجوم عليها لانه لم يكن بوسعه ان يطمئن للانكشارية بعد ان أغضبهم وأغضب الدولة العثمانية بحربه لهم . فرجعوا الى مصر حاكمين اياها مشتركا معهم محمد على بعد ان طردوا الانكشاريين وأسروا خسروا وسجنوه بالقاهرة ، فأرسل الباب العالى والياً آخر فقتله ابراهيم بك والبرديسى وحليفهما محمد على وأفنوا كل الجند الذين استصحبهم معه وعزموا على ان يتبعوه بالالفى الذى هرب منهم ولم يهتم محمد على بالبحث عنه . فاتهم كل منهم زميله: محمد على بالتوانى والاغضاء عن هرب الالفى والبرديسى بالخيانة وسوء النية وكانت النتيجة ان حرض محمد على الجيش على المطالبة بأجورهم فطالبوا البرديسى الذى فرض الضرائب ليدفع منها ، فهاج ضده الاهالى وساعدهم محمد على بجنده فهرب البرديسى ثم تبعه ابراهيم هارباً أيضاً الى الصعيد فنهب محمد علي منازلهم ومنازل سائر الامراء المماليك الذين ولوا هاربين ثم عرج على القلعة وأخرج خسروا من سجنه ونادى به والياً على مصر حتى يعين السلطان من يريد ولكن كانت النتيجة المحتمة انه أرسل الى حيث لا رجعة ثم كان خسروا آخر تركى عين والياً على مصر لان محمد على قضى على حكمهم نهائياً .

عمر مكرم في سنوات الاضطراب : كان عمر مكرم فى كل هذه المدة مستكناً خالداً في منزله الى الهدوء بعد ان رجع الى نقابة الاشراف لا يظهر أمام الشعب ولا يظهر أمام الولاه الا القليل ، فقط لما يستدعيه مركزه بحكم رآسته لنقابة الاشراف . بل انه كان يتباعد عن الاتصال بالصدر الاعظم ثم خسروا ثم اعتزل الحوادث أيام ثورات الجند فقد رأى الحال تفتت الكبد وتدمى الفؤاد حتى تحرك الشعب أثر الاضطرابات الكثيرة أثر خروج ابراهيم بك والبرديسى من القاهرة ينادى بحكومة من الشعب وللشعب فسمع النداء وخرج من عزلته ليطالب بمطالب الشعب فعاود بذلك معاودة فعلية الى الميدان حتى اختارت الدولة العثمانية احمد خورشيد والياً على مصر وقد كان حاكما للاسكندرية الذى كان كل همه ان يدبر المؤامرات للقضاء على الامراء المماليك مظهراً كل العناد ومغمضاً عينيه عن كل ما حوله اذ ظهر البرديسى ثانية فى الارياف وعاود الالفى انتظاره فرصة للهجوم على مصر وكان كل منهما لا يعمل لنفسه فقط فقد كان الاول يعمل لفرنسا والثانى يعمل للانجليز .

خورشيد فى الميزان : كان خورشيد في القاهرة شبه محصور وكان لكل أمير من الاميرين الملتفين قرب القاهرة (البرديسى والالفى) الحرية في ان يجمع ضرائب من المنطقة التي يحتلها فكان على خورشيد للحصول على المال ان يعتمد على أهل القاهرة فقط . ولكنه اشتط فى الجمع حتى وصل به الامر الى الارهاق بل وتغالى أيضاً حتى باع أولا بيوت

وممتلكات الامراء . ثم قبض على نسائهم ليفتدوا أنفسهم بالمال واضطرهن ان يبعن حليهن وكان لقبضه على النساء أثر بالغ في النفوس وزادها مرارة ان أمر الاهالى بدفع ضرائب السنة مقدماً ، ثم ظن ان رؤساء الاقباط يستطيعون مالا يستطيعه غيرهم ففرض عليهم اداء قسط كبير من المال ، بل وأرغمهم على ان يدفعوا أموالا ليسوا بملزمين ان يدفعوها وقسطاً فوق طاقتهم ان يدفعوه . واشتط بالمطالبة وتمكن بهذه الوسيلة الشديدة ان يجمع مقداراً من المال مكنه من تسيير الامور بعض الشيء ولكنه كان يبغى غناه أيضاً ففرض ضريبة أخرى تلتها ضريبة حتى أزعج العوام وازداد ازعاج الاقباط وبدأ الاضطراب يدب فيهم ولما شعر بحرج الحالة رفع الضرائب عن العوام الغاضبين وكلف بها الاقباط المتململين ثم أشرك اليهود . وكان يستخلص الاموال بكل قسوة ووحشية وبالضرب والسجن والتعذيب .

مشاكل ومشاغل : حاول خورشيد ابعاد محمد على من طريقه فأرسله على رأس بضعة آلاف من الجنود لابعاد المماليك الى أواخر الصعيد فأبعدهم لمدة الشتاء مع جنوده الالبانيين (الارناؤود) وفي الوقت نفسه عمل على التقرب من أعيان المصريين وأرسل فى طلب مدد عثمانى قبل رجوع محمد على وجنوده . وكان حضور هذا المدد وبالا عليه فقد كان يسير سير الفاتحين لا يبغى الا نهباً وغنائم فأثار الشعب وزاد ثورة الشعب مكر محمد على به فسعى لابعاده عن مصر باصدار مرسوم بتعينه

على جـده مع اعطائه لقب باشا ولـكن الارناؤود اصروا على عدم سفر قائدهم الذى تظاهر بعـزمه على السفر وفضل الشعب المنـاداة بمحمد على والياً على مصر ليخلص من حكم خورشيد وكان عمـر مكرم هو أول داعيه لتوليته ثم ذهب اليـه مع الشرقاوى والبساه ملابس الولاية في ١٣ مايو سنـة ١٨٠٥ فأصبح بذلك حاكما على مصر بارادة مصر بالرغم من ان السلطان لم يوافق ولم تـكن له رغبة في الموافقة ولـكنه عجز عن مقاومة رغبـة الشعب الذى حاصر خورشيد في القلعـة حتي حضر أمر لخورشيد بالتسليم وترك الحربة للشعب ليختار والياً له حسب رغبته .

حكم محمد على : كان امام محمـد على ان يتخلص من القوى المستعدة لمحاربته خارج القاهرة بعد ان استسلم خورشيد ونزل من القلعة وكان كل اعتماده على معونة السيد عمر مكرم الذى ساعده على الفتك بالمماليك في القـاهرة يوم وفاء النيل باعداد شرك لهم ثم أغلق الابواب عليهم والفتك بهم فى الشوارع . وتلفت بعـد ذلك الى تنظيف الاقاليم فطرد البرديسى الى الجنوب والاتراك الى الشام ، أما الالفى فقـــد تحرك الى دمنهور ليستولى عليها ولاهمية دمنهور الحربية ذهب عمر مكرم اليها محرضاً أهلهـا على المقاومة حتى قيل أنه كدس فيها ما يكفى من السلاح والغذاء لثباتهـا في الحصار سنة وتحـــرك الباب العـالى فناصر الالفى تحت تأثير ضغط الانجليز وهو ربيبهم فأصدر فرمان بنقل محمد على الى سلانيك فرفضه السيد عمر مكرم وزعماء الشعب فحضر الاسطول التركى وزاد الالفى الضغط

على دمنهور ليستولى عليها والسيد عمر مكرم يشجع أهلها ويتصل بهم ليقويهم على الثبات ولكن الله أراد ان يوقع الخلاف بين المماليك فاضطر عندما طالت المدة ان يفاوض الترك محمد على ليتركوه فى ولاية مصر ورجع الاسطول فمات البرديسى غما لضياع الغرض وهاجر الالفى حزيناً الى الصعيد حيث مات فخلص الجو لمحمد على .

الحملة الانجليزية : وفى مارس سنة ١٨٠٧ وصلت عدة سفن انجليزية الى الاسكندرية وانزلت جنودها التى استولت على الاسكندرية وسار نحو رشيد . أما محمد على فقد كان فى اسيوط يقضى على فلول جيوش البرديسى فعاد سريعاً لما علم بخبر الحملة الانجليزية وأسرع الى رشيد . وكان عمر مكرم بالقاهرة يحرض الناس على مناصرة محمد على والقيام لانقاذ رشيد من أيدى الانجليز والاستعداد للخروج للحرب بأنفسهم فخيب ظنهم محمد على اذ طلب منهم نقوداً فقط وردهم حيث ذهب وحده فهزم الانجليز مبعداً الشعب عن التدخل بعد الآن . مما صدم شعور السيد عمر مكرم وخيب أمل الشعب ، وبالرغم من ان الشعب قد تعود على خدمات الولاه فان عمر مكرم لم يكن يفكر فى ان يلقى شيئاً من هذا من محمد على الصديق الذى بذل نفسه وماله من أجله ومن أجل تثبيت ولايته وانقاذه من ورطاته وكان هذا أيضاً داعياً ليأس عمر مكرم من محمد على وانصرافه عن مجلسه غير انه سكت عنه وظل راضياً به لاستقرار الامن فى عهده وتقضيله لعهد محمد على عن العهود التى سبقته . وابتدأ محمد على يشعر بعدم وجود

رقابة عليه فزاد فى توسيع نطاق حكمه المطلق فزادت الجفوة بينه وبين عمر مكرم فامتنع عن زيارته ، اذ فقد مودته . ثم زاد الجفاء فأصبح السيد الوقور عمر مكرم لايمتنع عن ابداء السخط على مسلك محمد على باشا على مسمع من الناس فكان يستكف ظلم الجنود للناس ويشكو الضرائب وينتقد خطط الباشا حتى زادت الجفوة عامين طويلين حتى أدى الامر بهما الى العداوة الصريحة .

آلام الشعب وآلام عمر مكرم : حطم محمد على مقاومة الثائرين في أنحاء الاقاليم وتفرغ للاصلاح الداخلى بتنظيم الادارة واصلاح المالية . فانتقل من مواجهة الاعداء الى مواجهة الشعب ، فاذا كانت البلاد خلصت من الامراء فانها ابتدأت ان تتحمل الضرائب التى أثقلت كواهلهم وكانوا ينتظرون ان تزول مع انقضائها لان محمد على نوى ان يجعلها أساساً للحكم . وزاد الطين بله ان الدولة العثمانية أرسلت لمحمد على ان يخمد ثورة الوهابيين وكان لا مفر له من ان يصدع بالامر . حتى لا تضيع منه مصر بعد كل هذا الذى بذله . فأراد ان ينظم الضرائب ويكسبها صفة الاستمرار والدوام ولم تكن الضرائب موزعة توزيعا عادلا ليرضى عنها الشعب اذ كانت تعفى كثيرا من الاغنياء وتنصب على عاتق الفقراء .

وزاد ألم الشعب ان أحد كبار حفظة الامن قبض على شخص من كبار العلماء والقاه في غيابة السجن من غير ان يعرف تهمته التى

سجن من أجلها ولما كان مثل هذا الحادث قد سبب ثورة الشعب أيام على بك الكبير .

تجمعت آلام عمر مكرم من أجل نفسه مع آلامه من أجل الشعب فهبت العواصف على قلبه كما هبت عواصف الاستياء على القاهرة فابتدأت الاجتماعات تعقد في الازهر وفى منازل الكبراء . وكان عمر مكرم يعرف في نفسه الصلابة فلما ناداه الشعب تريث قليلا ولكن الحاح الشعب أرغمه على ان يترك تريثه فجعل يصرح بأشد النقد لسياسة الباشا وأمضى الشعب على عريضة قدمها اليه . وعرف محمد على ان الامر خطير فأرسل الى زعماء الشعب لمفاوضته فأوقع الشقاق بينهم اذ قبل البعض المفاوضة ورفض عمر مكرم أى تسليم أو مفاوضة الا بعد التسليم بأحقية الشعب فى رفض مالا يشاء من الضرائب أو يحكموا بغير قانونهم الذى اكتسبوه بثوراتهم المتوالية ، وذهب بعض الشيوخ منهم الدواخلى والمهدى لمقابلة محمد على فاستمالهم اليه فرجعوا يلومون عمر مكرم وبذلك تمكن الباشا ان يفصل بين عمر مكرم الذى كان يدافع عن عقيدة وثبات ويعارض من أجل الحق ، وبين العلماء والشيوخ الذين يحقد بعضهم على عمر مكرم ويغيرون منه وبعضهم استمالهم محمد على بلباقته وكان لتصرف هؤلاء الكارهين والذين استمالهم الباشا ، أكبر العوامل لنجاح الباشا فى ابعاد الشعب عن حق ابداء الرأي فى حكم البلاد .

تهديد ووعيد : ظل السيد عمر مكرم على رأيه رافضاً ان يذهب الى

محمد على لمفاوضته في أمر يرى انه من حق الشعب اذ لا حق له فى تغيير نظام الضرائب . وربما يكون قد تجاوز حدود الاعتدال في أثناء حديثه ، بل قيل انه كان يلمح أحيانا ويصرح أحيانا أخرى باستعداده للدفاع عن حقوق الناس بالقوة ولو أدى ذلك الى ثورة عامه يعود فيها شعب مصر الى حماية حقوقه بقوة ساعديه متشبثاً برأيه القائل ان مصلحة البلاد تتطلب وضع مبدأ ثابت وحد فاصل بين ما يجب للدولة وما يجب عليها . لان الباشا اعتذر بفرض الضرائب بالضرورة الملحة فلما ان ذهبت الضرورة ومرت لا موجب لابقاء الضرائب على ما هى عليه ، والتمس الباشا كل طريق يثنى به عمر مكرم عن رأيه تارة بالرجاء وأخرى بالوعيد ومرة بالملاينة والبذل وأخرى بالتهديد حتى قيل انه عرض عليه اثنى عشر الفا من الجنيهات مع اربعون جنيها يوميا فأصر على رأيه .

ولكن كان هناك الشيوخ المنافسين لعمر مكرم يحاولون هدم سمعته وتحريك محمد على من جهتهم باساءة سمعة عمر مكرم عند الناس باختلاق المطاعن والمبالغة فيها . حتى كان ان طلب محمد على زعماء المصريين ان يمضوا على قوائم حساب ترسل للباب العالى يشكو فيها محمد على من خواء الجزينة المصرية فمضوا جميعاً الا عمر مكرم الذى صارح الباشا بأن الضرائب التى تجبى تكفى لانعاش البلاد فتطور الامر واعتقد الباشا ان الخلاف بينه وبين عمر مكرم ليس على أمور تتعلق بصالح الشعب بل هو خلاف شخصى يمس شخصه وشرفه وأرسل لعمر مكرم انذاراً أخيراً يطلب منه

الحضور اليه الى الديوان فرفض الذهاب اليه قائلا ان أراد الباشا مقابلتى فليزل الى من القلعة . فعدها الباشا اهانة جديدة مست شخصه ولكنه كظم غيظه ونزل الى بيت ابنه ابراهيم باشا فوجد جميع الزعماء فى انتظاره الا عمر الذى اعتذر بمرضه فثار الباشا وأعلن خلعه من نقابة الاشراف ثم نفيه من القاهرة الى دمياط .

النفى : أوهم محمد على الزعماء انه قد يئس من اصلاح عمر مكرم وأدخل فى روعهم ان حكمه بالنفى على عمر مكرم هو حكم عادل وعقاب عادل . وقد كان محمد على يعرف تماماً باختباره الطويل أخلاق هؤلاء الشيوخ فقد كانت ثورتهم اولا ضده مع عمر مكرم بل وقبله ليس من أجل الشعب بل خوفاً على مصالحهم وأموالهم ، فلما ان اطمئنوا على أموالهم خذلوا عمر مكرم الوحيد الذى كان لا يدافع الا عن صالح الشعب لذا فقد كان محمد على يعرف تماماً كيف يرضيهم فأعطى نقابة الاشراف للشيخ السادات وقسم غنائم زميلهم النبيل بينهم يقتسمون منزله وأمواله وأملاكه وأمتعته ، وبذا كان ابعاد عمر مكرم ونفيه احدى خطوات محمد على في سبيل السير نحو حكم البلاد منفرداً وابعاد الشعب عن التدخل في ادارة شئون الحكم .

لقد كان عمر مكرم يقدر تماماً مسئوليات الحكم لانه كان شريكا فيه وكان يقدر ان الصعوبات الحالية أسقطت كثيراً من الحكومات فكان يعطى للباشا بعض الحق ولكنه كان كزعيم للشعب لا يقبل ان يتلاعب

لوالى بمصير الشعب ولا ان يتحكم فيه . وقد كان في بعض فترات تفكيره في حيرة لذلك . لذا فقد لا يكون من المغالاه ان نذكر انه سر للنفى لانه بنقذه من هذا التفكير المضني كما ان محمد على كان يقدر خدماته السابقة خدمات الصديق المخلص المضحى ولكنه ما كان يريد نفى الصديق بل كان يبغى نفى الثائر . لانه بعد ان نفاه عزى أهله وواساهم .

واجتمع الناس عامة وزعماء ليودعوا الزميل الشيخ النبيل فى اغسطس سنة ١٨٠٩ في الثالث عشر منه ولم يملكوا جميعاً دموعهم حزناً على فراقه وتحركت السفينة تحمله من بولاق الى دمياط حيث قضى أربع سنوات فى كثير من الضجة والضيق ، ثم نقل الى طنطا وضيقوا عليه حتي صار أشبه بالسجين ، فالجند تلازمه وتمنع اتصاله بالناس مقيدين حريته ثم رجع واعطاه بعض الحرية حتى انه أظهر استعداده لاصدار العفو عنه لو أظهر ميله للخضوع أو سمع منه كلمة رجاء .

ولكن السيد عمر مكرم أبى ان يطلب عفواً واستنكف ان يشكو عسراً أو ضيقاً حتي بقى فى طنطا خمس سنوات أخرى حتى أتيح لابراهيم باشا ان ينال النصر تلو النصر على الوهابيين حتى دخل عاصمتهم وكسر شوكتهم فلم يسعه الا ان يرسل رسالة يهنىء فيها ذلك الحاكم الذى عابه في مواضع الضعف فيه ولم يكتم شعور الفرح فى نفسه لما لقيت مصر من مجد على يديه فأرسل هذه التهنئة التي قابلها محمد على بالعفو بل أرسل اليه خطاباً رقيقاً عاد بعده عمر مكرم فى يناير سنة ١٨١٩ وارتجت

القاهرة اذ خرج عامة الشعب لمقابلته غير انه اختار ان يعتزل فى داره متحاشياً الظهور اذ كانت السبعون سنة التى أدركها تؤثر في عظامه فلا يقوى على ضجة المحافل ولا المجتمعات .

الباحثين عن الذهب : بعد نفى عمر مكرم بادر الشيوخ الذين فرحوا لنفى عمر مكرم المنافس لهم بالمطالبة بثمن مساعدتهم للباشا وخذلانهم للشيخ النبيل فنال الشيخ السادات نقابة الاشراف والشيخ المهدي نظارة وقفى الامام الشافعى وسنان باشا مع هدية مالية تقدر بألف جنيه . ونال الدواخلى القربى والحظوة والجاه والسلطان . ثم اجتمعوا وكتبوا شكوى للباب العالى يشكون فيها عمر مكرم لتكون الشكوى مبرراً للنفى الصقوا فيها كل التهم التي هو بريء منها وأمضوها وأرسلوها .

غير ان تدبير الله لم يتركهم طويلا فقد ماتوا الواحد أثر الآخر ولم يتمتعوا بالاموال التي سلبوها اذ استرجعها محمد على بعد وفاة كل منهم تاركا القليل لورثتهم بل وزاد الامر بالشيخ الدواخلى اذ أدركه النفى قبل ان تدركه المنية .

النهاية : لم يكن حال الحكم بعد عودة السيد عمر على ما كان عليه قبل نفيه فان الباشا قبل نفيه لعمر مكرم لا يزال يؤثر الحذر والحيطة فى الاقدام على خططه واصلاحه ، خشية من ثورة الشعب على النظم التى لم يألفوها ومجاملة للزعماء والشيوخ العشرة المكونين لديوان الحكم المسموع الكلمة من الباشا والشعب .

ولكن نفى السيد عمر أزال من طريق الباشا الرجل الوحيد الذى كان يعارضه عن مبدأ وعقيدة ، وترك خلفه قوماً كانوا لا يعارضون الا لصالح شخصى واستطاع الباشا ان لا يصطدم بمصالحهم فضمن سكوتهم ورضاهم ، بل غمرهم باحسانه وفضله فصاروا أطوع له من بنانه .

وكان محمد على قد خلا له السبيل بعد ان خرج من حروبه منتصراً فالتفت الى اصلاحاته الداخلية غير محتاج لشىء من الحذر فأقبل على اصلاحاته غير ناظر الى الشعب ولا مقدر لآماله وقد تمت له السيطرة على كل أمور البلاد وأصبح حكمه مطلقاً اذ توفي كثير من الزعماء ومنع اجتماعات ديوان الحكم فاتجه به الى وجهة لا يمكن الوقوف في سبيلها .

وأقام السيد عمر مكرم في بيت منعزل عن المدينة اتخذه في مصر القديمة . اذ كان شخص مثله قضى حياته في ضجة الثورات وصخب الحوادث والنفى والتشريد يحتاج الى الهدوء والدعة .

ومضى الباشا فى سياسته المالية لا يخشى على سياسته من معارضة أحد وكانت الظروف تضطره لجباية كثير من الاموال فشدد في جمعها حتى انه قرر ضريبة على المساكن والمنازل ولم تكن معروفة من قبل فتركت أثراً سيئاً فى نفوس الفلاحين . وترك الكثيرون منازلهم ليسكنوا فى الخلوات بقرب حقولهم . فلما جائت سنة ١٨٢٢ في ٨ مارس منه وصلت الى الاسكندرية الاساطيل التركية طالبة مؤونة وذخيرة لتخمد ثورة جزيرة كريت فزاد محمد على احتياجاً لفرض ضرائب جديدة فقاومه

الشعب رافضين الدفع وهاجت القاهرة ولجئت الى الشيخ محمد العروسى شيخ الازهر فخيب آمالهم فيه فالتفتوا الى الشيخ الذى عودهم ان يستمع لشكايتهم وعند ما بلغ محمد على هتاف الشعب باسم عمر مكرم أسرع وأمر بنفيه ثانية ليتدارك الامر .

أمر لم تتحقق منه : قيل فى أحد المراجع وهو « سيرة السيد عمر مكرم » للاستاذ فريد ابو حديد ان عمر مكرم نفى الى طنطا ومات هناك . وقيل فى مراجع أخرى انه لما وصله أمر الباشا رفض قبوله فقتله الحند لعصيانه ومقاومته تنفيذ أمر النفى . وان كان هذا الامر أكثر رجوحاً لوجود قبره بمصر (بقرافة المجاورين) .

كلمة تقدير : ان كان لنا ان نبرز ناحية خافية في سيرة عمر مكرم فهى انه الزعيم المسلم الوحيد في ذلك الوقت الذى قدر وحده الامة فعمل على توحيد عنصريها ، وقتل كل دعوة نادوا بها للتفريق بين أقباطها ومسلميها . بل انه كفرد دافع عن مصالح الامة كمجموعه فقد كان ملزماً ان يدافع عن الاقباط كجزء من هذه المجموعة وكعنصر عامل من هذه المجموعة التى أخلص لها ، وظهر هذا الامر جلياً فى حكم خورشيد الذى اضطهد الاقباط اضطهاداً بالغاً حتى انهم هربوا من وجهه تاركين أموالهم ومساكنهم ونسائهم فاستولى خورشيد على أموالهم وأمتعتهم والقى القبض على نسائهم ليفتدوا أنفسهم ، وكان هذا الامر من أفظع الاعمال التي أتاها فسارع عمر مكرم لنجدتهم وآوى أكثرهن في منزله بل

وحرض الشعب لمحاصرة منزله لحمايته من غضب خورشيد وقد كان على استعداد ان يعلنها حرباً طاحنة ضد الوالى الذى لم يرعوى حتى رأى عمر مكرم ان يخلص الشعب من مثل هذا الوالى بلا حرب ترهقهم أكثر وأكثر فالبس محمد على خلعه الحكم ليخلصهم من هذا الظلم .

هذه الناحية مع الاسف الشديد لم يقدرها مؤلف حتى الآن فلعلنا أنصفناه بعد ان بينا من هو وعلى أي خلق كان .

ابراهيم الجوهري

و

جرجس الجوهري

المعلم جرجس الجوهرى

ابراهيم الجوهرى

نشأته : لم تفلح محاولات الكتاب الذين اهتموا بتاريخ حياة ابراهيم الجوهرى أو جرجس الجوهرى أخوه فى العثور على التحقيق على تاريخ بلادهما أو ميلاد أحدهما .. فقد عرف عنه انه تربى تربية عادية ، اذ تلقى الحساب والقراءة على يد (فقى القرية) الذى لم ينس ان يلقنه (صورة الفدان) . واذ خرج من مكتب القرية وقضى حداثته في التعليم انتقل الى عمل كتابي لدى احد المماليك ، وقد كان عمله يدر عليه ايراداً بسيطاً ما كان ليغريه على البقاء ازاء غطرسه المملوك الذى يستغله فترك العمل لديه وبقى مدة طويلة خالى الوفاض . وما ان يئس من العثور على عمل معتمداً على نفسه عرض أمره على البطريرك الذي أعطاه كتاب توصية للمعلم رزق . وما ان رآه المعلم رزق وقد كان رئيس الكتاب وقت ذاك حتي عرض عليه ان يكون كاتباً خاصاً له .

دخول السياسة في حياته : كان يحكم مصر وقتذاك على بك الكبير أحد كبار المماليك حكماً شبيه بالصلاح ان لم يكن يصلح تماما وان لم يكن يخلو من كثير من الدسائس التى لم يبال بها على بك حتى كانت النتيجة المرتقبة ان ذهب الى الشام ليفتتح بعض بلادها واذ وزع بعض جنده

هناك وعاد بالبعض الآخر المنهوك لاقاه أحد قواده محمد بك ابو الذهب بجنود جمعها وحرضها على واليها فقتل على بك تحت سنابك الخيل وسقط أثر خيانة قائده له فرجع الاخير ليملك ويحكم وما كان ليرضى بالحكم الا بعد ان يمحو كل ما يمت لسيده بصلة فأخرج كل من عينهم من قبل وبالطبع لم ينس المعلم رزق فقال بعضهم انه مات مقتولا وقال البعض انه طرد فقط ثم نفى الى منفى بعيد .

ولما تلفت حوله لم يجد أحدا ليحل محل المعلم رزق (المقتول أو المطرود لسنا ندرى) فترك هذا المركز خاليا وعهد للمعلم ابراهيم بالقيام به مؤقتا . ولكن محمد بك ابو الذهب لم يعش طويلا ليحكم فرجع الى الحكم ثلاثة من زعماء المماليك يكونون حكماً ثلاثياً وهم ابراهيم بك ومراد بك واسماعيل بك الذى هرب تاركا الحكم الثلاثي يتحول الى حكم ثنائى.

فى الرآسة : خلص الامر بعد هرب اسماعيل بك لابراهيم بك ومراد بك واهتم ابراهيم بك بالامور المادية كى يسد أعوازه وأعواز جنودهما وكان لابد له من فرض ضرائب كثيرة وكان لابد له من جامع خازم للاموال يسد عوزه فعين ابراهيم الجوهري اذ لم يكن هناك من ينافسه لهذا المركز . ولم يكن هناك فى الميدان أكفىء منه ولكن ابراهيم لم يكن ينوى ان يأخذ الناس بالشدة التى يبتغيها الحاكم بل عمل جهده ان يوفق بين طيبته ولينه وبين أمرهما مضحياً بالكثير من أمواله الخاصة . وبلغ ابراهيم الجوهرى مركزاً عظيما أيام حكمها حتي قلد

رآسة الكتاب وهى ما تقابل رآسة الوزراء فى وقتنا الحالى .

ولقد كان مركز ابراهيم الجوهري في رآسة الكتاب من أحرج المراكز فقد كان الحكم الثنائى حكم فوضى وقلق يمتلىء بالدسائس حتى يفيض . وكانت الكوارث يتلوها الحروب فحروب عليهما وحروب بينهما . اذ كان أحدهما يغاضب الآخر فينفصل عنه ليخرب ويدمر ويحرق ثم يعاودان الصلح لينفصل الزميل الآخر ويعاود التدمير والحرق . وكان الجوهري ملزما ان يلاشى التأثير السيء الذى يتركه الحاكمان حتى لا يمل الشعب دفع الضرائب ولا يمتنع . كما كان ملزما ان يرضى كل زميل غاضب ببعض المال كى يرضى ، فكانت كل الاعباء المالية تلقى على أكتافه عليه ان يسوس الشعب كما يسوس الساسة علاوة على جمع الضرائب وموازنة مصروفات الدولة وحسابها .

ولما ان اشتد الخصام بين الشريكين وطال بينهما الخصام اضطر ابراهيم الجوهرى كى يسافر الى الصعيد ليلقى مراد بك ويرضيه كى يرجع الى شريكه . واذ كان كل من يعاونون الجوهرى اما من جهلة المماليك أو جباة الاتراك . فقد أخطئوا أو زادوا قسوة في الجمع اذ كان الجوهري غائباً ، فضج الناس ضجيجا لم يسبق لهم مثله وكان ابراهيم بك مهتما بجمع جنده خوفا من مراد بك زميله ان يفاجئه واستولى على كل ما فى الخزانة ليعطيه لجنوده . فزاد فراغ الخزينة قسوة الحياه فزاد ضجيج الشعب فتحركت دار الخلافة فى تركيا رغم الخطر الروسى . فجاء اسطول

وجيش بقيادة (حسين باشا الجزائرلى القبطان) فهرب ابراهيم بك ليلحق بمراد بك ، واذ كان الجوهرى بالصعيد من قبل فقد وجد من الخير ان يبقى .

اضطهادات حسين قبطان : لقد حضر قبطان الى مصر ليجد الخزينة خاوية تماما ، ولما كانت الحملة الى مصر لم تأتى الا للتأديب لا لتثقل كاهل تركيا فقد كان طبيعياً الزام مصر بمصاريفها أو على الاقل الحصول على تعويض تأديبى . ولكن أين للخزينة الخاوية ان تأتى بمال فتحولت أنظاره الى الشعب ... ودائما الشعب . وفرض ضرائب واشتط فى فرضها بل لجيء لكثير من الحيل والاخاديع ليحصل على المال وأصدر كثير من القوانين خصيصاً ليحصل على المال حتي امتلىء الجند وأرهق الشعب ولكن هناك جيبه الخاص يحتاج أيضاً للامتلاء .. وكان هناك مجال عقله يتسع لبقية من القوانين الظالمة ، فأرهق الشعب الذى احتار أين يولى وجهه الآن . لقد اشتكى من ابراهيم بك ومراد بك لتركيا فلمن يشتكي من تركيا ؟ وكان لحالة الشعب النفسية أكبر الأثر فى ان تحولت الى كره شديد للحاكمان السابقان .

ولما أدركوا الجوهري بتفكيرهم انقسموا الى فريقين ، البعض يفترى عليه وينسب الشركة اليه اذ كان هو الجابى والمدبر والآمر الظاهر والبعض ينصفه ويدافع عنه بوجوب قيامه بالعمل الملزم به كموظف مسئول . وان دواعى الامانة في العمل تلزمه بحسن القيام بالعمل ،

وتطاول الامر بين الفريقين ، واذ كان معظم المفترين عليه من الغوغاء والمتعصبين فقد تسرعوا وقاموا بتفتيش بيته الذى تركه ونهبه وكأنهم ذاقوا للنهب لذة فقد خرجوا من بيت الجوهري ليتبعوه ببيوت الاقباط «١» المجاورة ثم انتقلوا الى كل بيوت الاقباط في القاهرة يسلبون مالها وأمتعتها ويهينون سكانها ويسفكون دم بعض كبرائها وكأن حسين باشا قبطان لم يرد ان يحرم نفسه من غنائم الغوغاء أو خاف ان يسبقوه اليها فأصدر عدة قوانين لا مثيل لها في العالم ومثال ذلك باع بالمزاد متاع الاقباط ثم أتبعهم بالحريم والاولاد . فكانت الاسواق بدل ان تحوى المتاع فقط كانت تقام الاسواق لبيع السيدات والاولاد . مما لم يجرى له مثيل أبداً مما اضطر عقلاء المسلمين على الاحتجاج وكان على رأسهم الشيخ السادات وعمر مكرم الذى عارض الجند الذين حاصروا منزل أحد كبار الاقباط وأعلنوا بيع زوجته واحدى بناته بالمزاد فأخذ الشيخ السادات يصرخ ويستنجد حتى اجتمع جمع عظيم وخوفاً من حصول هياج ترك الجند السيدات وأمسكوا به ليقابل حسين باشا قبطان وهناك وقف في وجهه .

واذ حرض عمل هؤلاء الجند الغوغاء ، زادوا في غيهم فأعلنوا الجهاد ضد الاقباط «١» علانية أذ حللوا نهب وسلب بل وقتل المسيحيين فامتلأت الشوارع بالجثث وعم الاضطراب حتي استنجد

(١) كتاب تاريخ الاقباط وكنيستهم لمدام بونشر وكتاب عهد المماليك للرافعى .

الاجانب بدولهم ولا سيما فرنسا فاستعد نابليون بحملة يخلص بها الفرنسيين المقيمين بمصر .

واذ رأى زعماء المسلمين وعقلائهم تطور الحوادث فقد احتجوا أولا لدى حسين باشا قبطان فلم يستمع للاحتجاج ، واذ كان يهمهم الوفاق بين عنصري الامة كى يتعاون الجميع في دفـــع الخطر الخارجى فقد استنجدوا بتركيا ، ولما عرف قبطان باشا باستنجاد الشعب منه غاظة هذا الامر فصمم على ان يرغمهم جميعاً على الرضوخ لامره والسكون فأمر بالقبض على الجوهـرى في أقصى الصعيد . ولما كان في مكان حصين مع ابراهيم بك ومراد بك فقـــد قبضوا على زوجته وقد كانت مختفية عند (حسن أغا كتخدا على بك) وهـو امين حساب الجوهرى وامين سره وأسروها مع بناتها وأولادها وسألوها عن أموال الجوهرى الباقية ولما لم تجب أخذوا في جلدها وتعذيبها بكل قوة . وتحت تأثير التعذيب والقسوة أقرت على بعض الخبايا وقـــد كانت كثيرة أمتعة وأوانى ذهب وفضة وسروجات أخذوها ولكن لم يطلقوا سراح النساء .

ولم يكتف قبطان باشا بهذا بل كان يريد ان يتشفى من الجوهرى البعيد عن مخالبه ، ففرض عليـــه وعلى كبار المسيحيين الذين هربوا من وجهه غرامة مالية كبيرة تبلغ عدة آلاف من الجنيهات فباعوا ما يملكون وبعضهم أفنى كل ما يملك في سبيل دفع هـــذه الغرامة وباعت السيدات أمتعتها الباقية وحليها المخفية .

ثم تبع هذا الامر بفرض عوايد على منازل الاقباط ، كما حرم عليهم التسمى بأسماء الانبياء أى لايسمى قبطى بأسماء ابراهيم واسحق ويعقوب ويوسف وغيرها غير ان الجيش التركى للدولة العثمانية كان يحتاج لكل جندى فلم تلبث تركيا ان استدعت قبطان باشا مع الجيوش والجنود التى معه فرجع تاركا الحكم للامراء أمثال عابدين باشا ودرويش باشا .

عودة : كان ابراهيم بك ومراد بك قد عرفا عمر مكرم فأرسلاه مندوبا عنهما ليفاوض الامراء في سبيل عودتهما وتم الاتفاق لضعفهما فعادا ثانية الى الحكم وعاد معهما ابراهيم الجوهري ليتحمل اعباء هذا المنصب الخطر الخطير ثانية وكان يحاول ان يعدل من طغيانهما باكساب بعض قوانينهما شيئاً من العدل والرحمة . بل ان نفوذه عليهما زاد حتي كان له مركز عظيم لديهما تدل عليه القصة الآتية :

اعتدى مرة موظف اداري من المماليك المعينين فى الاقسام على أحد الاهالى فى القاهرة فدافع عن نفسه فأراد المملوك القبض عليه بغير حكم شرعى من الوالى أو اذن ممن ينوب عنه فثار لذلك أهل منطقته اذ كان ذا شأن بينهم وكانت ثورتهم تهدد بثورة عامه فى القاهرة فبمشورة ابراهيم الجوهرى عزل الحاكم هذا المملوك وعينا مملوكا آخر أرغمه الجوهري على ان يذهب للاهالى ليعتذر لهم عن السلف المخطىء .

ويحكى البعض الآخر قصة أخرى اذ يقولون ان أحد أهالى مديرية الشرقية شكى للواليان أحد الامراء فلم يرى أثراً لشكايته فعاود الشكوى

فلم ينصف فدعى الى الثورة فوجـــد النفوس مستعدة لدعوته وأوشك الامر ان يؤدى الى ثورة عامة قـد تؤدى الى حرب طـاحنة فنصح الجوهـرى الحاكمين ان ينزلا الى زعمـاء الشعب وحصـل منهما على تعهد كتـابى بالعدل وعـــدم العودة الى الظلم وذهب الجوهرى بهذا التعهد الى الشيوخ الشرقاوى والسادات والبـكرى والنقيب فاطمئن الشعب وعاود الهدوء .

رجل سلام : قضى بعـد ذلك ابراهيم الجوهري فى أيام حكم ابراهيم بك ومراد بك خمسة سنوات بعد رجوعهما حتى أدركته الوفاه كانت من أعصب الايام ومن أكثر أوقات مصر اضطرابا . ومن أشدها هولا . اذ أظهر هذان الاميران من الظلم والطغيان ما لم يسبق له نظير ولم يسبقهما سابق سوى قبطان باشا الذى لم يفقه أحد قط ، فـكان أحدهما وهو مراد عنيفاً غليظاً شديد البطش قصير المنظر ، أفسد كل ما أصلحه السابقون واعتدى هو وخاصته على حقوق الناس وكان الآخر وهو ابراهيم بك ضعيفه شديد الحرص بلغ من ضعفه ان كان مطية لزوجته . حتى قيل أنهـا كانت لا تبـالى بصفعه أياكان وأمام أياكان فلا يغضب ولا يرعوى اذ كان همـــه الاكبر ان يحتفظ بنصيبه من الحـكم ومن غنائمه ، فترك لزميله الحبل على الغـارب . وقنع بما كان يلقيه اليه ، وقد يبدو عجيباً ان يكون الجوهري في خدمة رجال هذه الدولة وهو الذي قضى حيـاته كلها في خدمة الشعب ورفع كثير من المظالم عن أكتافه .

وان كان الشعب قد ثار عدة ثورات كما سبق ان بينا . فقد بقى هو بعيداً عن هذا الامر ولم يشترك مع الناس في تلك الحوادث على أنه لم يقصر فى الاشتراك في حل المشاكل وان لم يشترك في الثورات . فكان كلما ثار عمل على تهدئة الحال . وكانت مشورته دائماً ان يتبع الامراء سبيل العدل والاحسان وان يعدلوا عن طريق العسف والطغيان وكان له قبل وفاته بسنة واحدة سنة ١٨٩٤ الفضل فى كتابه الوثيقة الاجتماعية التى تعهد فيها الاميران الحاكمان بمراعاه العدل .

أخلاق : انه لمن الغريب حقاً ان نرى فى عصر يمتلىء أفراده بالخسة والدناءة والدس والخديعة فرداً على خلق متين مثل خلق ابراهيم الجوهري وفي بعض القصص الآتية الدليل القوى والبرهان الساطع على خلق قويم لا مثيل له .

أتاه أخاه جرجس الجوهرى يوماً يشكو رجلا من الرعاع كان يسبه كلما مر به حتي كره المرور من هذا الطريق ، فطيب ابراهيم خاطر أخيه واعدا اياه ان يقطع لسان هذا السباب بعد ان استفهم عنه وسأل عليه وبعد يومين سار جرجس فى نفس الطريق فما راعه الا الخضوع يقدمه هذا الرجل مصحوبا بالشكر على هداياه . فجرى الى أخيه ابراهيم يعجب من هذا التحول الغريب ويسأل عن هذه الهدايا التى لا يعرف عنها شيئاً ، فقال له ابراهيم « لقد عرفت أنه فقير فأرسلت اليه سمناً وقمحاً وعسلا . ألم أقل لك أنى سأقطع لسانه وألم أوفى بوعدي وماصار يسبك »

هـكذا كان يقـابل الاساءة بالاحسان وهـكذا كان يحسن حتى لاعـدائه قائلا « ان جاع عـدوك فاطعمه وان عطش فاسقـه لانك ان فعلت هذا تجمع جمر نار على رأسه » .

وقيل عن فرط حبه للاحسان انه كان يأمر باقامـة ولائم للفقراء دائماً . واذ نزل مرة ليرى فقرائه الذين أحبهم رأى ان موائدهم ينقصها أرزاً فعنف خدمه بقوله ان هـؤلاء الفقراء ضعفاء وضعفهم يوجب علينـا ان نواسيهم ونخفف همومهم ونجبر قلوبهم الـكسيرة ببعض ما ملك من نعم الله . وزاد فى تعنيفه لهم حتي بكى وأبكاهم .

وقيل عن صبره وطول أنانه مع حبه للخير والاحسان . ان شحاذاً كان يعـرف انه لا يرد سائلا يبسط كفه اليه أبداً فأتاه وطلب منـه مالا فأعطـاه ، وعاوده بعد ساعة وسأله فأعطاه ورجع فسأله فأعطـاه وأخذ يلاحقه فى كل مكان فـكان لا يخيب ظنـه أبداً حتى انه طلب منه مالا ثمانية عشر مرة وأخيراً قال له السائل « ان كنت لم تسئم الاعطاء والاحسان فقد سئمت والله الملاحقة والسؤال » .

وقيل أيضاً ان كبراء الاقبـــاط اجتمعوا فى صبيحة أحد الاعياد للتوجه لتهنئة البطريرك فتأخر عليهم المعلم فانوس ولما عاد علموا منه انه كان يطلق سجيناً ذا عائلة كاد ان يذهب ظلماً فعتب عليـه ابراهيم الجوهرى لاستئثاره بعمل هـذا الخير دون ان يشركه معه . وبحث عن السجين حتى عرفه وأوجد له عملا .

الناحية الطائفية : كان ابراهيم الجوهري تقياً ورعاً فاضلا يضحى في سبيل ان يقدم خدماته للمجموع ، كان ينسخ الكتب الدينية القديمة بنفسه وكم سهر فيها من ليالى وكم كلت يداه اعياءاً من كثرة الكتابة ويقدمها للمكاتب الكنائسية . وكان بالرغم من دخله البسيط فى أول عمله ككاتب عند أحد المماليك فقد كان ينفق ربع دخله على الخير . وأكثر من الربع يدفعه نفقات نسخ كتب أخرى غير التي ينسخها بنفسه حتى امتلئت بعض مكاتب الاديرة من الكتب التى ينسخها أو يتكلف نفقاته حتى اندهش في أمره البطريرك واستدعاه وسأله . ولا زالت آثاره بمكتبة البطريركية بمصر حتى الآن .

ولما ارتفع مقامه في الحكومة استصدر من الولاه ورجال القضاء الشرعى أوامر وفتاوى بترميم البيع والكنائس والاديرة المتهدمة ، وكان ينفق على هذه الترميمات والتعميرات من ماله الخاص ويبتاع الاملاك الكثيرة ويحبس ريعها على هذه الاماكن ، وكانت أهم هذه الترميمات والعمائر بناء سور لدير انبا انطونيوس بالجبل الشرقي لا زال مسمى باسمه وبنى كنيسة ابى سيفين بحارة زويله .

ثم أحضر عالماً يونانياً يعرف العربية على نفقته الخاصة ليترجم الى العربية تفاسير يوحنا فم الذهب .

وقال توفيق افندي اسكاروس مستشداً بالجبرتي فى كتابه (مشاهير الاقباط) انه أوقف ٢٣٦ وقفية بلغت أثمان العقارات الموهوبة فيها أكثر

من عشرة آلاف جنيه وقال مؤلفوا كتاب « تاريخ الامة القبطية » ان الوقفيات بلغت أكثر من ذلك .

وقد كان المعلم ابراهيم صاحب المسعى فى سبيل الحصول على ترخيص بناء الكنيسة القبطية الكبرى الحالية بالازبكية . اذ حضرت الى مصر احدى أميرات بيت آل عثمان فقام على خدمتها بنفسه وقدم اليها عند سفرها هدايا نفيسة فأرادت ان تكافئه على صنيعه مكافئة ترفع شأنه هو . ولكنه التمس من أجل طائفته استصدار فرمان سلطانى باقامة كنيسة ، وبعض مطالب أخرى خاصة بالشعب فصدرت الارادة السنية بما طلب على ان الوفاة أدركته قبل ان يبنيها فتولى ذلك أخوه المعلم جرجس .

ولقد بلغت به عنايته ان كان يخصص لكل دير وقتاً معلوماً يذهب اليه فيه يرعى شئونه ويكمل احتياجاته ويقضى مطالب رهبانه .

وانه لمن الشاهد حتى الآن ان عائلة انطونيوس عازار نعوم السريانى لا زالت حتى يومنا هذا تحي ذكرى ابراهيم الجوهرى بحفلات سنوية لما له من الفضل على جدها الاكبر نعوم السريانى اذ ناله اضطهاد ديني شديد فى حلب حتى فر منها وحضر الى مصر خالى الوفاض فآواه الجوهري وأعطاه مالا وأشغله حتى اغتنى .

كلمة تقدير : يقول الجبرتي في تاريخه عن ابراهيم الجوهري « انه أدرك بمصر من العظمة والنفوذ وبعد الصيت والشهرة ما لم يسبق لمثله ولا لغيره من أبناء جنسه وكان من دهاقين العالم ودهاتهم لا يقرب عن

ذهنه شيء من الامور ..... الخ » .

فان كانت هذه كلمة التاريخ فلنتأمل فى كلمة أحد كبار الرجال المعاصرين له « انه كان أكبر أهل زمانه . وكان محباً لله . يوزع كل ما يقتنيه على الفقراء والمساكين كما يهتم بجميع الكنائس كان يرضى جميع الطوائف يقضى حاجات الكافة . لا يميز فى الحق واحداً عن آخر . حتى لقد رأيته بعينى رأسى يوزع قمحاً ودقيقاً على فقراء المسلمين فى أيام رمضان والاعياد الاسلامية » .

وانه لما يبعث على الاسف في النفس حدوث حريق يفنى بعض كتبه وآثاره التي تثبت معرفته للتركية والعربية والقبطية حتى أنه كان يراسل الباب العالى بالتركية .

وتوفى ابراهيم الجوهري بعد ان اكتسب بأخلاقه الكريمة حب الجميع حتى ان ابراهيم بك سار بنفسه في جنازته ولم يتمالك نفسه عن البكاء ودفن بمدفن عائلته بمصر القديمة في يونيه سنة ١٧٩٧ .

جرجس الجوهرى

نشأته : لم يعرف تاريخ ميلاد جرجس الجوهري تماما كما لم يعرف تاريخ ميلاد أخيه ابراهيم كما ان حداثته كانت

مجهولة تماما اذ استرعى أخـــاه انتباه الناس فوجه الانظار . فكل ما عرف عنه حتى الآن ابتداء حياته كصراف فى بلدته (قمن العروس) من بلاد مديرية بني سويف . وأبت نزاهة ابراهيم الا يوليه أي عمل كبير حتى لا تظن به الظنون .

وقد شهد حكم ابراهيم بك ومراد بك اللذان اختاراه بعد رجوعهما من الصعيد أثر رجوع حملة قبطان باشا الى تركيا وولياه رآسة الاعمال الكتابية حتى توفى أخوه فعيناه بدلا عنه اذ لم يجدا أفضل منه . وتشهر مدة رآسة جرجس للديوان بالقلائل والفتن وأعمال العنف التي تبعتها دخول الحملة الفرنسية الى مصر كما فصلناه سابقاً ونورد عنه البعض فيما يأتي

ابراهيم بك ومراد بك : بعد ان استكتب المعلم ابراهيم الجوهري الواليان ابراهيم بك ومراد بك وثيقة الاطمئنان أبى ظلمهما الا ان ينقضاها ومضت ثلاثة أعوام مكفهرة الجو معكرة الافق والنفوس قلقه والقلوب واجفة مضطربة ، والصدور محرجة متقدة . وفيما كان شعب مصر متردداً بين الوثوب والاناه أتاه نبأ الفرنجة ينزلون في الاسكندرية في ٣ يوليو ١٧٩٨ فنظر الى الطغاه الذين سلبوه وآذوه لعله يجد فيهم من الحماية ما ينسيه مرارة عسفهم ، ولعلهم يكفرون في ذلك عن ماضى طغيانهم . واذ وعدهم مراد بك ان يحطم الجيوش الفرنسية تحت سنابك خيوله فما وسعهم الا السكوت والانتظار وجاءت الرسل تصف الاعداء النازلين بأرض الديار وتنبىء ان أعداء اليوم ليسوا كالاعداء السابقين

فقد حملوا معهم بنادق تطلق نيراناً تقتل قبل ان يشتبك الجيشين بالسواعد كما يحملون مدافع ترسل نيراناً تحطم الجلمود وتهد الصخر القوى الممدود فاستولوا على الاسكندرية بغير مقاومة تذكر ووالوا الزحف متجهين صوب القاهرة فعرف الناس ان الدولة القائمة لم تكن الا دولة حين اذ تحطم الناس وتطأ النفوس لا تجسر على مواجهة أعداء أقوياء .

الحملة الفرنسية : والت الحملة الفرنسية سيرها وحطمت في طريقها مقاومة مراد بك وابراهيم بك اللذان هربا الى أقاصى الصعيد ودخلت القاهرة حيث سارع نابليون بونابرت لتهدئة الحالة وتنظيم الاحوال . فلم يسع المعلم جرجس الجوهرى الا ان يسلم أوراقه وعهدته للوالى أو الحاكم الذي انتصر ودخل دخول الظافر . ولما كان نابليون لم يحضر الى مصر بجنود فقط بل كان عدد العلماء معه لا مثيل له . وقد كان من دواعى دهشته ان يراجع علمائه كل الحسابات والعهدة التى لديه فيرى منتهى الدقة والامانة حتى قدره حق قدره وأنزله من نفسه منزلة حسنة ولو ان جرجس رغب فى معاونة الفرنسيين لوصل لمركز سام ولنعم كما نعم من قبل ولكنه رفض وترك رآسة الديوان ، فاعتبره الفرنسيون عميد الاقباط وأجلوه واحترموه .

نابليون يستنجد به : قالت لجنة التاريخ القبطى في كتابها « تاريخ الامة القبطية » . واستصحبه نابليون الى السويس في أحد المهام ، وبالرغم من موالاتي البحث في كل المراجع لم أعرف تماما ماهية هذه المهمة ولم

يذكرها توفيق اسكاروس فى كتابه ولكننا نستنتج من سياق الحوادث ان أقباط السويس لاقوا مذلة واضطهاداً من مسلميها. فقرروا فى اجتماع عام عقدوه عدم دفع ضرائب لحكومة لا تعدل ولا تنصفهم من هذا الاضطهاد فكان لزاما على نابليون اذا أراد اخماد هذه الحركة بالطرق السلمية ان يلجىء الى المعلم جرجس وهو قبطى بل وعميد الاقباط كى يقنع أبناء طائفته ان عقلاء المسلمين لا يد لهم فى ذلك وان الحكومة ستأخذ الرعاع بالشدة ، حاثاً اياهم على دفع الضرائب بهدوء فيعاونوا الحكومة في محاربة الظلم الذى يشتكون منه .

حوادث وفلاقل : تتالت الحوادث بعد ذلك ولكن لم يكن للمعلم جرجس فيها شأن من رجوع نابليون الى فرنسا خلسة وتعيين كليبر لحكم مصر ثم فتك سليمان الحلبي به وتعيين مينو ثم الضغط الانجليزى التركى لمينو حتى عقد معاهدة الخروج من مصر فمادت مصر لحكم تركيا بعد أكثر من ثلاث سنوات ورجع لحكم مصر قبطان باشا صاحب الفظائع المشهورة التى سبق ذكرها فى تاريخ حياة ابراهم الجوهرى . عاد قبطان باشا ليستأنف اضطهاده للاقباط غير انه أشرك مع الاقباط طائفة المماليك فأخذ يحتال للقضاء عليهم بأدنأ الوسائل وأسفل المكائد فأولم لكبارهم وليمة في أكبر سفنه وأحرقها . وكان يدعوهم الى الديوان ليقبض عليهم ويفتك بهم غير ان الانجليز كانوا يسارعون لنجدتهم دائماً حتى كاد ان يؤدى الامر الى الاشتباك والاصطدام بين قبطان

باشا والانجليز . ثم سافر قبطان باشا الى تركيا وترك فى ولاية مصر خسرو باشا الذى كان على درجة كبيرة من الضعف شجعت على ارتكاب كثير من الفظائع ملئت القلوب حقداً وحفيظة . وكان الامراء قد استعادوا قوتهم فبدأوا يزحفون الى القاهرة يهزمون جنود خسرو فى مواقع متلاحقة نعم الاضطراب وهرب خسروا ليترك البلاد فى فوضى حتي دخل الامراء المماليك ليشاركوا محمد على فى الحكم الذى طرد البرديسى وولى بدلا منه خسرو وتلاه خورشيد الذى عمت في أيامه الاضطراب .

فى حكم خورشيد : يكفى ان تنقل هنا بعض العبارات التي وردت في كتاب الاستاذ محمد فريد أبو حديد اذ قال عن حكم خورشيد واضطهاده للاهالى .

« وامتنعت عن القاهرة الاموال التى كانت تعينها على تسيير الامور ودفع مرتبات الجنود لوقوف الجيوش المحاربة على أبوابها ولان الامراء كانوا أحراراً فى التنقل يجبون من المال فى المناطق التي يحتلونها أو يغيرون عليها . فلم يجد خورشيد أمامه ملجأ الا ان يشتد على أهالى القاهرة فى استخلاص ما يمكن استخلاصه منهم بأشد الوسائل وأدنئها فلم يتردد في وسيلة تخرجه من مأزق الافلاس والعجز ، حتي قبض على نساء الامراء والاقباط واضطرهن الى افتداء أنفسهن ببذل المال . فعل ذلك حتي اضطررن ان يبعن أمتعتهن وحليهن ، ويتكبدن أعظم المشقة في

سبيل افتداء أنفسهن وكان لهذا الاعتداء أثر بالغ في نفوس الناس والاعيان ، ولا سيما وقد كان القبض على النساء مما لم تجر به العادة في أشد الاوقات حرجاً واضطراباً . ثم أمر أهل القاهرة بدفع الضرائب مقدماً عن السنة ، ثم طالب الملتزمين بدفع ما عليهم من الاموال مع أنهم لا يتمكنون في تلك الظروف التي تشبه الحصار من الذهاب الى الريف لتحصيل الاموال من الزراع ، وظن خورشيد ان رؤساء الاقباط يستطيعون مالا يستطيعه غيرهم ففرض عليهم اداء قسط كبير من المال . وتمكن بهذه الوسائل الشديدة ان يجمع مقدار من المال شعر بأنه لا يغنيه . ففرض مقداراً آخر حتى عم الاضطراب في القاهرة » .

حكم محمد علي : مكر محمد علي بخورشيد ولما ان مهد السبيل لنفسه تولى الحكم أو ترك زعماء الشعب يولونه اياه وكان خورشيد محصوراً في القلعة وقتذاك . وقد كان المعلم جرجس في كل هذا الوقت في رآسة الديوان حتي ولاية محمد علي وحصاره لخورشيد . واذ طالب جنود محمد علي بمرتباتهم وهددوه ان يخذلوه في الحصار ولم تجد معهم الحجج والوعود ثم زاد عناؤهم فثاروا وخرجوا عن طاعته حتى جزع الباشا وظن ان الامر أفلت من يديه . ولكن السيد عمر مكرم هدأ جزع صديقه الباشا وأكد له جرجس الجوهري النجاح ما دام شعب مصر ورائه مقترحاً كأمين للخزانة يعرف تماما حالتها من الخلو ان يحل الاهالى محل الجند الذين تخلوا عن اداء واجبهم ، وتم ذلك العمل الباهر حتى

خرج خورشيد من مصر فقرب محمد على جرجس الجوهرى اليه اذ خدمه وأخلص اليه النصيحة ، كما لاحظ عليـــه أمانة ودقة فى عمله واخلاصاً لا يفوقه اخلاص .

انقـلاب : التفت محمد على بعد ان استتب له الامر للاصلاحات الداخلية كما ان جيشه كان قد كبر وتضخم وكانت هذه الاصلاحات تحتاج لتنفيذها الى مال كثير كما كان لجنود الجيش مطـالب فطلب محمد على من جرجس الجوهري فرض عـدة ضرائب تسد الاعواز الذى سيطرأ على الخزانة ، وقد كان المعلم جرجس قـد أرهق نفسه فى المدة الاخيره في سبيل موازنة المالية ازاء مطالب محمـد على المالية الـكثيرة فلفت نظر الباشا الى صعوبة فـرض ضرائب على شعب مرهق فلم يبـالى الباشا بهذا الامر وأمر تنفيذ الضرائب فنفـــذها المعلم جرجس فقابلهـا الشعب بضجة وملعلة كانت من أسباب خصام السيد عمر مكـرم لصديقه محمد على باشا . ثم زاد اعواز محمد على باشا اذ كلف بتجهيز حملة لاخماد ثورة الوهابيين فأمر بفرض ضرائب أخرى فلم يبادر المعلم جرجس بجبايتها لانين الشعب مما يحمله فتغير الوالى عليـه بعد ذلك . واذ كان محمد على في أشد الحاجه للمال لم يبالى بشفقة الجوهرى على الاهالى فقبض عليه .

واذ سمع الشعب وكان يعلم غضب الوالى على عمـر مكرم زعيمهم ثاروا وهاجوا وابتـدأت مظـاهراتهم فسارع الباشا بالقبض على زعماءهم حتى يرهب الشعب . واستدعى محمد على المعلم غالى وأسند اليه رآسة الديوان

وكلفه بمراجعة حسابات الجوهرى وفحصها فحصاً دقيقاً فلم يجد فيه موضع طعن ولا شبهة بل وجده مما يدعو للفخر حتى أرغم الوالى ازاء هذا الامر الواضح ان يفرج عنه على شريطة دفع مبلغ طائل فرضه عليه ، فاضطر الجوهرى ازاء ذلك ان يبيع كثير من أملاكه فى الازبكية وقنطرة الدكة ثم لجأ الى الوجه القبلى ليبعد عن هذا الجو المكفهر ويقال ان الوالى هو الذى نفاه وبعد ان قضى هناك أربع سنوات اذن له بالعودة الى القاهرة فعاد فى نوفمبر سنة ١٨٠٩ فقوبل مقابلة لا مثيل لها من الشعب الذي قدره بعد ان فقده .

وكان المعلم غالى قد أعد له داره وجهزها بالاثاث والرياش . ولما وصل تقاطر وجوه المدينة من جميع الملل للتسلم عليه ، ولما قابل الباشا بعد عودته أكرمه اذ ذكر له خدماته السابقة ، غير انه لم يعش بعد ذلك طويلا بل توفي سنة ١٨١٠ ودفن بدير مار جرجس بمصر القديمة بجوار أخيه بمدافن العائلة .

الناحية الطائفية : لم يفق المعلم جرجس الجوهرى فى احسانه وخدماته للطائفة فى القرن الثامن عشر ولا ما قبله الا أخيه المعلم ابراهيم الجوهري ، وقد كان شريكه فى تعمير الكنائس والاديرة ووقف العقارات عليها وقد أوقف وحده أكثر من ستين وقفيه . كما استصدر كثير من الفرمانات والاوامر للمصالح الطائفية ومثال ذلك فرمان بختم محمد على باشا والى مصر مؤرخ ٢٢ جمادى الاولى سنة ١٢٢١ الى قاضى

الاسكندرية وعلى افندى نقيب الاشراف والسيد حسن افندى نقيب السادة الاشراف وعلى بك امين الجمـــرك ومحافظ الثغر بعدم التعرض لطائفة الاقباط بالاذى أو الحبس أو الغرامات .

ومن الحكايات الغريبة التى تحكى عنه ان فقيراً كان له مال عند الجوهرى فلما وافته المنية ظهر له في حلم وأرشده الى بقال ليأخذ منه المال. وتكرر هذا الامر فذهب الفقير الى البقال فأعطاه المال قائلا انه كان عندي أمانة وأحمد ربي انى قد أوصلته لاصحابه .

كلمة تقدير : لقد كان المعلم جرجس أميناً كل الامانة في عمله فدفعته أمانته ان يخلص النصح لكل والى ولكنه كان يرعى الشعب ومعظمه من الفقراء فيعارض كل والى يبغى ارهاق الشعب ولكن محمد على كان كوالي ينزع للدكتاتورية لم يقبل النصح وكان هذا سبباً للخلاف وقد يكون الاحتياج لمال أعظم .

پطرس پاشا غالی

بطرس باشا غالى فى وكالة الحقانية

بطرس باشا غالى فى رآسة الوزارة

بطرس باشا غالى

كتب الدكتور حسين هيكل كمقدمة لتاريخ بطرس غالى باشا فقال « لعلك ان طلبت مثلا أعلى بين العالم لشعب وديع هادىء لا ترى خيراً من مصر محققة لهذا المثل . ثم لعلك ان طلبت مثلا أعلى لشعب طموح لا تفتأ أحشاؤه تضطرب بأسباب الثورة على الحاضر تطلعا الى الكمال والى العظمة والمجـــد لا ترى خيراً من شعب مصر محققاً لهذا المثل ، فقل ان عرفت مصر وسائل العنف في السعى الى أغراضها . ولم يقع ان ذلت مصر واستكانت أو يئست من تحقيق هذه الاغراض ، ولهذا الظاهر من التناقض فى صورة الحياة المصرية أثر كبير في قدر رجال مصر والآخذين بها لتحقيق مطامعها ، فهى أبداً فى نضال مع أمم غيرها تريد قهرها واذلالها وهى أبداً لا تذل لقاهر وان كانت ظروفها وكان تاريخها قد ألجأها الى ستر ثورتها الدائمة تحت ظاهر من الهدوء والسكينة ولذلك كان حتما بحكم هذه الظروف ان ينشأ فيها الرجل المحرك للعواطف يستنهضها وللهمم يحفـــزها ، ولنشاط الجماهير يدفعه الى الغاية السامية التى تطمع مصر فيها بحق . وان ينشأ الى جانب هذا الرجل رجل آخر هو السياسى الذى يعمـــل لتلافي الاصطدام بين اندفاعات الشعب وبين القوى الغالبة في مصر اصطداماً عجز الكل حتى اليوم عن

تقدير نتائجه ، أهو ينتهى الى تحطيم قوة الغالبين وقيام مصر الى جانبهم قوية اليد كما هى قوية النفس أم هو ينتهى الى تحطيم أمل النفس المصرية في بلوغ المكانة التي تطمع فيها ؟ واذا تحطم أمل أمة فترت جيلا بعد جيل وقصدت في بعثه واستعادته حتى يكون ظرف جديد يعين على هذا البعث ويدفع في نفس الامة أملا حاراً قوياً ينبض به قلبها ثم يندفق ثورة قوية تخلع النير وتحطم القيود .

وكان هذان الرجلان ، رجل الدعوة الى المثل الاعلى ورجل السياسة والسلم خصمين في أكثر الظروف وكانت الجماهير بطبيعتها نصيرة أبداً للمثل الاعلى ، غذاؤها فى الحياة بل هو حياتها بالذات أما السياسى الذى يزن القوى ويفاضلها ويعمل للوصول الى خير ما يمكن ان تصل اليه بلاده فالحوادث اللاحقة هى التي تحكم عليه أوله . ولقد كان بطرس غالى سياسياً ، وكان من أكثر المصريين اتصالا بحوادث عصره من ناحيتها السياسية فللحوادث وحدها الحكم عليه وللتاريخ انصافه » .

مولده : ولد بطرس غالى فى درب الحمام بالقاهره التابع لقسم عابدين في ١٢ مايو سنة ١٨٥٦ وكان أبوه وقتذاك موظفاً بدائرة مصطفى باشا فاضل ، والتحق بمدرسة حارة السقايين التى أنشأها الانبا كيرلس الرابع الملقب بأبو الاصلاح ثم انتقل من مدرسة حارة السقايين الى مدرسة مصطفى باشا فاضل حيث أمضى سني دراسته الاولية وانتقل الى مدرسة الاقباط الكبرى بالدرب الواسع وهى احدى منشآت الانبا

كيرلس الرابع أيضاً . ومما يحكى عنه أنه زار المدرسة ذات مرة وكان ناظرها يعقوب بك نخله رفيله فأعجب بذكاء بطرس ونباهته . فأرسل لوالده يوصيه بابنه والاعتناء به متنبأ له بمستقبل عظيم . وقد كان موضع اعجاب مدرسوه خصوصاً مصطفى بك رضوان الذى درس له العربية والفرنسية الذي قال عنه مرة (كما روي ابراهيم بك حلمى مفتش صحة السويس سابقاً) هذا التلميذ لابد ان يكون في يوم من الايام وزيراً .

كما روى أيضاً ابراهيم بك حلمى ان بطرس كان يكلفه بقرائة المحفوظات الفرنسية فاذا ما قرأها له مرة أو مرتين اثنتين حفظها على الأثر عن ظهر قلبه . وروي أيضاً ان مدرس اللغة الفرنسية فرض على كل تلميذ ثمانى صفحات من الاجرومية فتذمر التلاميذ من ذلك ولما أتوا في اليوم التالى أبدوا كلهم عدم امكانهم حفظها الا بطرس غالى فانه سمع ما عليه وما هم ملزمين بحفظه بل وجميع ما تبقى من الكتاب أيضاً .

لقد كان مثالا خارقا للعادة من أمثلة الذكاء وقوة الذاكرة المنقطعة النظير ، ويسرت له قوة الذاكرة تعلم اللغات المختلفه فقد أتقن العربية والفرنسية والتركية والفارسية وقد تعلم التركية والفارسية من أحد تجار خان الخليلى نظير ان يدفع له (مصروفه اليومى الخاص) .

ومما يدلل على قوة الذاكرة والذكاء الى جانب قوة الارادة التى امتاز بها أنه سافر الى انكلترا فقابله أحد علماء الآثار المتبحرين فى اللغة الهيروغليفية القديمة وعرف أنه قبطى فكلمه باللغة القبطية فلم يجبه .

ولم يلبث ان عاد الى مصر فأكب على دراستها فلم تمض ستة أشهر حتى كتب للعالم خطاباً بالقبطية .

ولقد كان الى جانب ذكائه وقوة الذاكرة التي وصلت الى حد الاعجاز مع هذه الارادة القوية ذا صحة متينة تدل عليها تلك القامة الممتلئة والعضل المفتول ، كما كان لبريق عينيه الدال على ذكائه أثراً غريباً في نفس المستمع اليه . حتى انه لم يتخط سنواته الاولى ودخل في طور الشباب حتى كان معروفاً من أولى الامر يومئذ وعهدوا اليه بأعمال ذات خطر ومسئولية اعتماداً على هذه العزيمة والذكاء .

حياة الوظائف : تخرج بطرس غالى من المدارس فالتحق كمعلم في مدرسة حارة السقايين التي كان فيها تلميذاً من قبل وكان ذلك في أيام الانبا ديمتريوس البطريرك السابق غير أنه لم يستمر طويلا اذ كان مرتب السبعة جنيهات التي يتناولها لا ترضى نواحي العظمة في نفسه فترك العمل بالرغم من ان هذا المرتب لم يكن قليلا في ذاك الزمن .

وبعد تركه للعمل عهد اليه تعليم ادريس راغب الذى صار بعد ذلك سعادة ادريس بك راغب المثري الكبير وصاحب جريدة الايجبشيان ونجل اسماعيل باشا راغب الذى كان رئيساً للوزارة سنة ١٨٨٢ وقت الثورة العرابية ، ويحكي عن راغب باشا هذا انه دخل عليه ذات يوم المرحوم شريف باشا (الوزير المعروف) فقال له ان عندي قبطى متوقد الذكاء حاد الذهن .

فطلب شريف باشا رؤياه ، ولما حضر أخذ يسأله بعض أسئلة ويتجاذب معه أطراف الحديث فسر منه جداً وأشار اليه بالتقدم فى الامتحان الذى عمل من أجل وظيفة مترجم لمجلس التجارة بالاسكندرية الذى كان قائماً من بعض الوجوه بأعمال المحاكم المختلطة التي أنشئت فيما بعد .

واستمع بطرس للنصيحة وتقدم للمسابقة فأدهش الممتحنين وأرغمهم على تعيينه اذ لم يكن في المتقدمين شخصاً في نصف مستواه الثقافى فعين فعلا بتاريخ ١٨ مايو سنة ١٨٦٧ بمرتب قدره اثنى عشر جنيهاً . وقد ذكر بعضهم على سبيل الفكاهة انه نال السبعة الجنيهات الاولى بخدعة ظريفة اذ تعين بثلاثة جنيهات ونصف ولكنه طلب من البطريرك الانبا ديمتريوس كتابة المبلغ كله بالقروش بلا توضيح جنس العملة (صاغ أو تعريفه) فكتب له ٧٠٠ قرش وهم عبارة عن ثلاثة جنيهات ونصف . وتمسك بطرس بما هو مكتوب فكان له ماأراد واحتسبوها له سبعة جنيهات .

وقد ذكر البعض ان بطرس غالى سافر الى أوربا لتلقى العلم هناك على أننا لم نجد فى التاريخ الصحيح ولا في أي مرجع ولم يؤكد لنا أحد ممن سألناهم هذا القول بالمرة فبطرس نبغ ودرس العلم فى بلاده وبين أهله وأهل وطنه فزاد بذلك فخراً على فخره . وقد أظهر فى وظيفته هذه كفاءة نادرة فقد رقي الى كاتب افرنكى في ١٨ يوليو سنة ١٨٦٩ ثم عين رئيساً للكتاب فى سنة ١٨٧٢ .

محسوبية .. ونزاهة : وكان فى مجلس التجار قضية ضد أحد محاسيب اسماعيل صديق باشا المشهور بالمفتش واذ كان بطرس غالى يخدم الحق فقد تسبب فى استصدار أمر ضد هذا المحسوب الذي شكا للمفتش . ولما كان هذا المجلس يتبع وزارة الداخلية فقد ذهبا الى شريف باشا يطلبان منه طرد بطرس غالى من منصبه .

ولما استدعى شريف باشا بطرس غالى بين يديه وقد كان اسماعيل المفتش موجوداً سأله شريف عن الامر ، فقص له الحقيقة بصراحة وحرية رأي مبيناً له الدوافع والدواعى ووجه الحق . فلم يعجب المفتش ما سمعه وخاطب شريف بالتركية مشنعاً فى بطرس الذى سكت حتى أتم كلامه ثم رد عليه بالتركية العالية بأفصح رد حتى بهت اسماعيل ، وازداد اعجاب شريف وسر من نزاهته وحريته وبش فى وجهه . ثم صرفه بعد ان عرف مقامه وقدره .

ترقيات وأعمال : كان اعجاب شريف باشا ببطرس غالى غير محدود فرقاه في ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٧٣ باشكاتباً لنظارة الحقانية وفيها أظهر مقدرة عظيمة ونباهة حتى اشتهر بين رجال الحكومة بهذه المقدرة . فلما قامت حركة نوبار باشا المشهورة التي قصد منها توحيد نظام القضاء بمصر وخصوصاً فيما يختص بالاجانب كلف محمد قدري باشا بترجمة قوانين هذه المحاكم الى اللغة العربية . فكلف هذا بطرس غالى بهذا العمل ، فترجم القوانين التى لا زالت معمول بها حتى الآن تدلل على مقدرة بطرس

ومن أجـــل ذلك رقي الى وظيفـة رئيس الاقلام العربية مع وظيفة مترجم وزارة الحقانية وكان ذلك فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٧٥ في حكم الخديوى اسماعيل .

وفى أول يناير سنة ١٨٧٦ عين مديراً لعموم أقلام وزارة الحقانية وأنعم عليه برتبة (بك) من الرتبة الثانية . وان هذا ليدلنا على عظم المركز الذى حازه بطرس غالى في ذلك الوقت لان هذه الرتبة لم يكن أهلا لها فى مصر الا أشخاص بعدد أصابع اليد اذ كان اعطائها صعباً فى ذلك الوقت ومن المراجع التى عثرنا عليها قصيدة بقلم صالح مجدى بك القاضى بالمحكمة المختلطة يهنئه فيها لنواله هذه الرتبة .

وقد أظهر في منصبه الجديد همة عالية ونشاطاً كبيراً فتعين من أجل ذلك سكرتيراً جنرالا براتب شهرى قدره ثمانون جنيهاً . وأنعم عليه برتبة (المتمايز الرفيعة) فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٧٦ .

تحول خطير : حدث فى سنة ١٨٧٩ ان صدر فرمان سلطانى بابعاد الخديوى اسماعيل باشا لتراكم الديون على مصر وتبذيره في أموالها . واذ تولى الحكم الخديوي توفيق باشا ابنه فقد كانت رغبته ان يسير بهدوء وسكينة مع نواب الدول الاوربية في مراقبة المالية المصرية . وقد كلف بطرس بك غالى بمساعدة هـــؤلاء المندوبين وامدادهم بالمعلومات التي يطلبونها عن حالة مصر المالية .

ولما صدر أمر الخديوي في ٣١ مارس سنة ١٨٨٠ أثناء قيام وزارة

رياض باشا بالحكم ، لتشكيل لجنة لتصفية الديون فعين بطرس بك غالى نائباً عن الحكومة المصرية فى ٤ ابريل سنة ١٨٨٠ . ولما كان المندوب المصرى الوحيد في هذه اللجنة فقد كانت مهمته خطيرة . اذا كان مكلفاً ان يقدم جميع المساعدات والبيانات والمعلومات لمندوبى الدول الذي كان تعيينه في هذه اللجنة بناء على طلبهم وموافقتهم . وكان في الوقت نفسه مدفوعاً بالدافع الوطني ان يحاذر من مساس الحقوق الوطنية .

وفي هذه السنة قدم لهذه اللجنة تقريراً خطيراً صار مشهوراً لاهميته عن (الاطيان والضرائب) وقد حاز هذا التقرير اعجاب المندوبين أعضاء اللجنة كما حاز اعجاب الوزراء والخديوي فأثنوا عليه وعلى همته ووثقوا به كثيراً . وقد كان هذا التقرير مرجعاً هاماً لكثير من عظمائنا الحاليين أمثال جرجس بك حنين فى وضع كتابه عن (ضرائب الاطيان العقارية) ويعقوب أرتين باشا فى كتابه (الاحكام الرعية) وغيرهم من الكتاب والماليين .

ثم عين بعد ذلك في القومسيون « المكلف بتحضير القوانين المتعلقة بشروط قبول موظفى المصالح ومستخدميها وترقيتهم ورفتهم » وكان هذا القومسيون مؤلفاً برآسة وزير المعارف زكى باشا وعضويته مع عريان بك تادرس باشكاتب وزارة المالية ويعقوب أرتين باشا .

وبعد انتهاء لجنة التصفية أخذ يحضر مع قدري باشا وزير الحقانية القوانين الخاصة بالمحاكم الاهلية .

وفى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨١ عين باشكاتب لرآسه مجلس النظار بدلا من كخيل بك بمرتب قدره مائة جنيه شهريا .

ولقد كان مما يثير فيه العجب ان يكون بطرس بك غالى القبطى دماً ولحماً مطلعاً بل ومتبحراً فى الشريعة الاسلامية كما شهد له علماء الاسلام . ولما كان مشهودا له بالنشاط والهمة والتضلع فى اللغات فقد عين وكيل لنظارة الحقانية وصدر بذلك أمر خديوى فى ١٠ اكتوبر سنة ١٨٨١مع بقاء وظيفة (سكرتير مجلس النظار) فى عهدته وقد كانت من القصائد التى هنأ بها قصيدة من رفاعه بك الطهطاوى جاء فيها :

ترقى بطرس رتب المعالى ... وقد سرت من الاحباب أنفس
بحقانية أضحى وكيلا ... يحامى عن حقيقتها ويحرص
وتوفيق الآله يقول أرخ ... بحقانية وكلت بطرس

وكان رغم وكالته للحقانية وسكرتاريته لمجلس النظار لا زال مشغولا بوضع قوانين المحاكم الاهلية مع قدري باشا وزير الحقانية الذى أضحى رئيسه المباشر ولم يكن هذا العمل بالسهل ولكنه عرف كيف يقوم به رغم خطورته ورغم مشاغله الكثيرة ونواحى نشاطه الاخرى .

يقول الدكتور حسين هيكل عن هذه الفترة ما يطابق ما ذكرناه اذ ورد فى الصفحات ١٢٣ و ١٢٤ و ١٢٥ في كتابه (تراجم مصرية وغربية) ما يأتى :

« أتاح لبطرس غالى الاشتغال في التحضير للمحاكم المختلطة التعرف

الى رئيس النظار نوبار باشا فكان اتصاله به ذا أثر كبير فى تكوينه السياسى وما فتيء هذا الاتصال بينهما وثيقاً مستمراً داعياً الى ثقة نوبار باشا بباشكاتب الحقانية حتى كان هو أول من اختاره ليكون ناظراً للخارجية فى وزارته التى الفها سنة ١٨٩٥ بعد ان اختاره رياض باشا قبل ذلك ومنذ سنة ١٨٩٣ ليكون ناظراً للمالية . ويرجع اختيار رياض باشا له لوزارة المالية الى سبب خاص ذلك أنه لما انتهت الحكومة المصرية من انشاء المحاكم المختلطة فى سنة ١٨٧٥ كانت على أبواب ضائقة مالية كبيرة جرتها اليها الاستدانة الفادحة فى أول حكم الخديوى اسماعيل سنة ١٨٦٣ ففى سنة ١٨٧٦ صدر قانون بتأليف صندوق الدين وبتعيين المراقبين الماليين ، لكن هذا القانون لم يخفف من وطأة الديون شيئاً ولم يرفع من الضغط على دافعى الضرائب وارهاقهم بأقصى وسائل الارهاق وأبعدها عن كل معاني الانسانية ثم استيلاء صندوق الدين على كل ما كان يحصل حتى اضطرت الحكومه الى دفع مرتبات الموظفين بما جعل أحد الانكليز الموظفين فيها يومئذ يكتب فى مذكراته أنه قضى يومين لم يدخل فمه فيهما طعام لاعوازه الى ما يسد به رمقه . واذ كان الدائنون الاجانب مع ذلك مصرين على اقتضاء مصر كل تعهدات واليها . فقد انتهوا الى الاتفاق على تشكيل لجنة للفحص ثم لتصفية ديون مصر وعين رياض باشا نائباً عن الحكومة المصرية فى اللجنة المذكورة وعين بطرس بك غالى السكرتير العام لنظارة الحقانية مساعداً له ،

ثم عين رياض رئيساً للجنة وعهد الى بطرس بالنيابة عن الحكومة . وفي ذلك الظرف الدقيق اضطر الى ان يدرس من مباحث اللجنة ومن الشؤون الماليه ما مكنه من ان يضع تقريراً عن نظام الضرائب في مصر كان بعد ذلك مرجعاً ينقل عنه وحجة يعتمد عليها .

ولما انتهت الحوادث التى تلت تقرير لجنة الماليـة الى اقصاء المغفور له اسماعيل باشا عن العرش فخلفه توفيق فيه . كانت الحكومة قد بدأت تفكر في الغاء المجالس القضائية القديمه ، وفي انشاء نظام قضائى جديد هو النظام القائم الآن . واذ كان بطرس ممن عملوا فى التشريع للقضاء المختلط فكان طبيعياً ان يكون على رأس الذين يعملون فى التشريع للقضاء الاهلى . لذلك عين في سنة ١٨٨١ وكيلا للحقانية والقى عليه عبء تنفيذ النظام القضائى الجديد .

وبقى فى وكاله الحقانية حتى عين ناظر للمالية في سنة ١٨٩٣ .

أى أنه أمضى احدي عشر سنة فى وكالة الحقانيه .

الثورة العرابيه وبطرس : كان لتصرف اسماعيل باشا المالى الأثر الكبير فى خلو الخزانة المصرية دفعه لان يفكر في معالجة هذا النقص ، تفكيراً أثار تبرم رجال الجيش اذ (سرح) منهم الفين وخمسمائة من الضباط معظمهم من المصريين بينما ان الجيش المصرى كان حينذاك متخما بالضباط الاجانب الذين كانوا متغطرسين لدرجة أثارت مرؤوسيهم وكان اخوانهم من ضباط الجيش يشعرون بالالم من أجل زملائهم

المضطرودين ويخشون ان يكون الطـرد نصيبهم أيضاً رغم ما يلاقونه من عنت الزملاء الاتراك والشراكسه .

وكان ان أنزل اسماعيل باشا عن العرش ليحتله توفيق . وجاء في حكمه رياض باشا الذي عين فى وزارة الحربيه شركسياً هو عثمان رفقى الذي كان يمقت المصريين ويمتهنهم ، فتأججت فى الصدور مراحل الحقد وقامت فى نفوسهم زوابع الثورة .

وكان توفيق أول حكمه يظهر العطف والحب لامتـه ينادي بحكم الشوري وبسلطة الشعب . ولـكنه عاد ونكس العهد الذى قطعـه على نفسه فأثار نفوس القـــوم كما أثار نفوس الجيش . وجاء حكمه مطلقا استبداديا غير مباليـا بشعور الشعب تاركا الحـكم الاجنبي يتغلغل فى البلاد اذ عـرف انه يضعفه ازاء انجلترا وفرنسا القويتين القادرتان ان تخلعـاه كما خلعتا أبيه .

وبالرغم من رؤية توفيق لنذر الانفجار آتية من ناحية رجال الجيش لتسريح الوف من الجند ومئات من الضباط فقد سرح هو أيضاً عشرة آلاف جندى فى أول ولايتـه ، كما رأى اشمئزاز الشعب من حكمه اذ زادت الضائقه وخوت الخزانة حتى بقى كثيرون من الموظفين يليهم رجال الجيش لم يقبضوا مرتباتهم بالرغم من امتلاء خزانة صندوق الدين .

أضف الى ذلك قرار عثمان رفقى باشـا بعدم ترقية المصريين فى وزارة الحربيه الى الدرجات التى يستحقونهـا بينما يرقي الجراكسه الى

أكثر مما يستحقون .

كل هذه الدوافع دفعت الضباط المصريين لتأليف جماعة منهم برآسة احمد عرابي وعلى فهمي وعبد العال حلمي وقدموا لرياض باشا عدة مطالب للاصلاح سنة ١٨٨١ لم تنظر الحكومه فيها فدفعوا آلايات الجيش للاحتجاج على تصرفات عثمان رفقي والمطالبة بعزله ورفعوا عريضة للخديوى محتجين ، فأصدرت اليهم الحكومه الامر بالذهاب الى قشلاقات قصر النيل حيث القى القبض على ثلاثتهم وجردوا من رتبهم . غير ان آلايات الجيش علمت بهذه المكيدة الحكومية من محمود باشا سامي البارودي وزير الاوقاف فى وزارة رياض باشا الذى كان متصل بالثلاثة الضباط من قبل فسارع الجيش الى قصر النيل وحطمت ابواب القشلاق وانقذت الضباط من سجنهم بقوة السلاح وسار الضباط الثلاثة على رأس آلايتهم من قصر النيل الى عابدين وهناك وقف على رأسهم عرابي باشا خطيبا شاكرا لهم اخلاصهم وانقاذهم اياه . ثم تقدم الى الخديوي يطلب العفو عنه وعن زملائه وخلع عثمان رفقي من نظارة الحربية . غير انه اردف عبارته هذه بقوله انهم لا يبرحون اماكنهم هذه الا بنيل بغيتهم ولما كان توفيق قد رأى كل الاوامر التي اصدرها الى ضباط الجند لا تنفذ ورأى نفسه في مأزق لا يعرف سبيلا الى النجاة منه سارع الى اجابة طلب العصاه وأقال عثمان رفقي باشا من الحربية وعين مكانه صديق الضباط الثائرين محمود سامي البارودى باشا .

وكان لضعف توفيق هذا أثره الكبير في نفوس الضباط المتصرين فانضم اليهم الكثيرين من غير العسكريين فازدادوا قوة على قوة وناديوا بضرورة وجود مجلس للنواب وكان سامى البارودى من المنادين بهذا الرأى جهارا فكان هو روح الحركة ومحورها لمركزه الحكومى الكبير فى وزارة الحربية .

وبرغم ضعف الوزارة وشعور الخديوي بقوة الثائرين فقد عمد لمقاومة هذه الحركة بالشدة فعزل البارودى من نظارة الحربية وعين بدلا منه صهره داود باشا يكن مكانه الذى أمر بقمع الحركة بمنع اجتماعاتهم وبث الجواسيس حولهم وأمر بنقل الآلايات لتشتيتهم . فرفض الجيش تنفيذ أوامر التنقل وأبلغوا الخديوي بان الجيش سيحضر بتمامه الى عابدين لابداء اقتراحات تتعلق بطريقه الحكم وفشلها ويشؤون الجيش ونظامه .

وما ان علم الخديوي بهذا التمرد المكشوف حتى ارتبك وذهب بنفسه مع وزرائه يرجو ويستعطف الآلايات المتمردة ويحقق معهم بنفسه ثم ذهب الى القلعة ليدرك آلاى عرابى ليرجوه ان لا يفعل ما اعتزم عليه فلم يدركه اذ كان عرابى قد توجه الى عابدين فعاد الخديوي ادراجه اليها . وهناك في ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ كان عرابى يركب جواده مستلا سيفه وخلفه كل الجيش وضباطه ومن أمامه توفيق في شرفه عابدين وحوله وزرائه وقناصل الدول . أمر توفيق عرابي أن يغمد سيفه فاغمده

وتقدم بمطالبه وهي اسقاط الوزارة وتشكيل مجلس النواب وزيادة عدد الجيش والتصديق على قانون العسكرية الجديد وعزل شيخ الاسلام وربما كان التصديق على قانون العسكرية أهم مطالب الجند وربما اكتفوا به لو ان الخديوى اجابهم فوراً اليه وأمرهم بالانصراف لكي تنظر حكومته فيما عدا ذلك من المطالب . غير ان الخديوى ارتبك فرفض فواجه خطر النداء بعزله والمناداة بالجمهورية كما كان يجري في اذهان العرابيين . واشار عليه الوزراء بالدخول من الثرفة خوفاً من استفحال الامر ازاء مواجهة الرجلين لبعضهما فدخل وعمل الوسطاء بالاتصال بين الخديوي وعرابي المتشبث بطلباته . أما الخديوى فكان مرتبكا بين التشبث كما يشير عليه قنصل انجلترا مهوناً عليه الامر بين التسليم فغلبه ضعفه فسقطت وزارة رياض ووعد بتنفيذ باقي المطالب بالتدريج والف وزارة شريف باشا الذي استعان بحزمه وشتت الضباط الثلاثة وفرقهم في البلاد فاستتب الامر قليلا غير ان خلافاً نشب بعد ذلك فاستقالت الوزارة والفها العرابيين برآسة محمود سامى البارودى وكان عرابي وزراً للحربية فيها فالقى القبض على عشرات الشراكسة بينهم عثمان رفقي باشا بتهمة التآمر على نظام الحكم فتدخلت انكلترا وفرنسا وارسلتا بوارجهما الى الاسكندرية وانذرتا عرابي بالنفي والتشريد بحجة المحافظة على عرش الخديوى فاستقالت الوزارة محتجة على هذا الانذار فاختل الامن واضطر الخديوى ان يعين عرابي وزيراً للحربية حتى تألفت وزارة اسماعيل راغب باشا وهو فيها .

بطرس غالى والثورة : كان بطرس مشتغلا مع قـــدري باشا فى تحضير القوانين للمحاكم الاهلية عندما شبت نيران الثورة العرابية فأوقف مؤقتا هذا العمل وفي اثنـاء هذه الحوادث لاحظ الخـديوي على بطرس ابتعاده واعتكافه عن التدخل فى هذا الامر بل كان شعوره كرجل سلام ضد القيام بأي عمل ثورى ضد الخديوى فأنعم عليـه الخديوى برتبة « الميرميران الرفيعة » فى ٧ فبراير سنة ١٨٨٢ . وقيل ان الذى طلب الانعام بهـا عليه هم زعماء الحركة العرابية لـكى ينفوا عنهم تهمة التعصب فى أعمالهم القائمين بها .

وذهب عرابي بجنوده الى الاسكندرية لمقاومة الاسطول الانجليزى الذي ابتديء أن يضرب الاسكندرية فدك حصونها فثارت ثائرة العرابيين على الخديوى لفرحه بهذه الهزيمة لهم . ونووا له الاذى فـكان لبطرس غالى أكبر الأثر فى منع الاذى عن الخديوى وكان يخاطـــر بنفسه بين زعماء هذه الحركة وينصحهم كثيراً بالعدول عن نواياهم .

وتقهقر عرابي الى كفر الدوار غير ان الانـكليز ذهبوا الى بورسعيد واسماعيلية مخالفين اتفاق حبـاد قناة السويس ونزل الجند سائرين صوب القاهرة فتقابلوا مع العرابيين فى التل الـكبير هازمين اياهم أثر خيانة بعض الضباط الشراكسة فسار عرابي نوا مـع بعض الضباط الى القـاهرة وجمع مجلسا كبيرا في قصر النيل خاطبا في الناس محرضا اياهم على الدفاع ووافقه الحاضرين واستقر رأيهم على انشاء خط دفاعي حول ضواحي القاهرة .

ولم يوافقهم أحد الضباط خوفا على القاهرة من التخريب وكان يناصره بطرس لاستحالة الدفاع أمام قـــوة الانكليز وعرض عليهم أن يكتب الشيخ عبدالله نديم عريضة استرحام للخديوي فكتبها مظهرا فيها ان هذه الحركة لم تكن الا برأى الخديوي فأبى عليهم بطرس هـذا العناد فطلبوا منه أن يكتب هو لهم العريضة فكتبها هـو ذاكراً فيها (قد أخطأنا في ما وقع منا . ونرجو من ولى النعم العفو عنا) وذهب بهـا مع عبدالله نديم ورؤوف باشا حكـــدار السودان السابق الى سراي راس التين لاسترحام الخديوي وبذا خلص الناس من شر ثورة اخرى .

ثقة الخديوي : وثق الخـديوي ببطرس كل الثقة اذ حـدث عندما حصلت مذبحة الاسكندرية ان تداولت الوزارة فى هذه الازمة وقررت تشكيل لجنة برآسة عبد الرحمن بك رشدي وزير المالية للنظر فى هذه الحوادث وعين بطرس باشا عضواً فيها فظهر نشاطه في هذه اللجنة جليـا وبعد ذلك كان عمله كله وساطه وحب للسلام واخلاص لصاحب العرش فلما انتهت الثورة أخذ في تتميم ترجمة وتبويت القوانين المصرية التى صدر بها الامر العالي سنة ١٨٨٣ . ولا زال نفس هذا القـانون هو المعمول به حتى الآن ولا زال القضاء حتى الآن يحكمون بموجب هذا القـانون الذي وضعه بطرس . وكان مساعداً كبيراً للنظار فى عمل القوانين واللوائح فشغل هـــذا المركز في وزارات شريف ونوبار الثانية ورياض الثانية ومصطفى فهمى الاولى حتى اختـاره رياض باشا في وزارة الماليـة في ١٩

يناير سنة ١٨٩٣ وانعم عليه برتبة (روميلي بيكاريكى) .

ولكنه لم يمكث فى هـــذه الوزارة الا سنة وبضعه أشهر فسقطت وزارة رياض باشا وشكلت وزارة نوبار باشا الثالثة فى ١٦ أبريل سنة ١٨٩٤ وعينه وزيراً للخارجية وفى هـذا المنصب اثبت انه خليق بقول اللورد كرومر عنه « ان وزير الخارجية ذو كفائة عاليـة ونـال لنفسه شهرة بلغت حد الآفاق » (كتاب مصر الحديثة ص (١) جزء ثانى) .

اتجاهه السياسى : ان خير ما يعبر عن اتجاهـه السياسى وتكوينه النفسى فى الحكم بعد ذلك لهو ما ورد فى (التراجم) عنه وهو :

« لعل الحوادث التي مرت بمصر وشهدهـا بطرس باشا قبل أن يصل الى منصب الوزارة كانت ذات أثر كبير في توجيه سياسته وزيراً . فقد حضر نائباً عن الحكومة المصرية فى لجنـة التصفية فوقف على ميول الاجانب واطماعهم . ثم رأى جهود الخديوى اسماعيل للوقوف في وجـه تدخلهم باسم مصلحة الدائنين تنتهي الى اقصائه عن العرش .

ثم انه حضر وشهد تطورات الثورة العرابية وما آلت اليه من تشتيت والحكم على زعمائهم بالاعدام واستبدال ذلك الحكم بالنفى . وكان بعد ذلك على اتصال بالمؤامرات والمحادثات التي حصلت بقصد جـــلاء الجيوش الانكليز عن مصر . وما كان من وعود الانكليز في ذلك وتدخلهم برغم هذه الوعـــود فى الشؤون المصرية ووضعهم يدهم على الادارة المصرية . ثم كانت بعد ذلك حادثة فرمان الخديوي عباس ووقوف انجلترا في وجـه

تركيا باسم الدفاع عن حقوق مصر . كما كانت حادثة الحدود واعتذار الخديوي عباس رغم اعتزازه بملكه الشاب للقائد كتشنر . وبطرس باشا كان على ذكائه وقوة ارادته وسعة حيلته . رجل سلم وعمـــل مطمئن مما جعله بعيداً عن الحركة العرابيـة الى أن جاء دور السلم والوساطة . كما كان من طائفة الاقلية الدينية فى وقت كانت النعرة الدينية فيه متغلبة على كل نعرة اخرى . أضف الى هـــذا كله انصالة بنوبار وتـكوين عقله تـكويناً سياسياً لا تـكوين زعامة شعبية مقصور غرضها على الدعوة للعمل الاعلى . هذه الظروف كلها تفسر لك سياسته من بعد ارتقائه الى منصب وزارة المالية سنة ١٨٩٣ وانتقاله الى وزارة الخارجية بعد ذلك وبقـائه فيها حتى مع تقلده رياسة الوزارة في سنة ١٩٠٨ وبرغم ما جرت به سنة الوزارات المصرية من تقلد رئيس الوزارة لوزارة الداخلية ».

« وتشهد ظروف تقلده الوزارة بأنه كان برغم ما قدمنا من ميله للسلم والحيلة موضع ثقة الخديوي الشاب عباس . فلقد كانت أول وزارة اختير بطرس لها وزارة نخري مصطفى فهمي فى سنة ١٨٩٣ رغم لورد كرومر والتي لم تبق لذلك فى منـاصب الحـكم غير يوم واحد . ثم انه حل محل ثقته أن رأى فيه خير وسيط يحل المشاكلات التي كانت كثيرة الحدوث بينه وبين لورد كرومر . على ان عمله في وزارة المـالية وفى وزارة الخارجية ظل عمل موظف أمين كفء حريص على بقاء المساواة في المعاملة بين المصريين جميعاً من غير تمييز بينهم بسبب الجنس أو الدين ».

وجاء عنه فى كتاب « موجز المقال فى مشاهير الرجال »

« ونظرا للثقة الكبيره التى وضعها فيه الجناب العالى الخديوى . ولاعتقادهم بكفاءته النامة لقياده هذا المنصب فيما يعود على البلاد بالرفاهية والسعادة ابقوه وزيرا للخارجيه فكان فيها قطب الدهاء .وسياسى يندر وجوده . يحيط به اربعة عشر دولة قوية لها مصالح واموال . فكان الجمع بين هذه المصالح المتعدده . والتوفيق بين تلك المنافع المتشعبه من اقدر آيات الزمان التي لا يمكن ان يوصفها بنان فضلا عن وجود الاحتلال الانكليزى . وسيطرة عميده الاكبر فكان واسطه فيه خير لمصر . ومنع الضر عنها بقدر ما وسعته طاقته وفتقت له حيلته

وقال عنه العميد البريطانى « انه لشوكه فى جنب المصالح الانكليزيه ولكنه بكياسته يرغمنا على الاعجاب به »

ولقد امضى في هذا المنصب المعاهدات التجارية بين جميع الدول الاجنبيه . وفي ١٩٠٤ اتفق مع الحكومه المحتله (انكلترا) على اطلاق يد الحكومه المصريه من الاثر المالى الذى كانت فيه كيف شائت بلا منازع بعد ان كانت يدها مغلوله عنه

اتفاقية السودان : وكان للقلاقل التي حدثت في السودان الاثر الكبير في تفكير الانجليز فى اخلائه فاشاروا على مصر بالاخلاء وانتدب كتشنر لذلك ثم عاود الجيشان المصري والانجليزي فتح السودان ثانية فاستعادوها غير ان مصر تلفتت حولها لتستعين بالدول الحليفه

كتركيا وفرنسا فلم تجد منها التفاتا فلم يسعها ازاء النفوذ الانجليزى الا أن تستسلم .

« قد نعجب اذ نرى بطرس غالى ولم يكن فى سنة ١٨٩٩ الا ناظراً للخارجية متضامنا مع سائر زملائه النظار فى سياسة الدولة العامة يحمل وحده وزر هذه الاتفاقية . فاخلاء السودان سنة ١٨٨٤ بأمر انكلترا واستعادة فتحه بعد ذلك بأمر انكلترا ايضاً . لم يكن من عمل ناظر الخارجية وحده . بل كان من عمل مجلس النظار كله . وقد كان بطرس وزير المالية سنة ١٨٩٣ مع نخـــــري ثم مع رياض ثم انتقل الى وزارة الخارجية مع نوبار سنة ١٨٩٤ فظل فيها مع مصطفى فهمي لما الف وزارته الجديدة . وفى هذه الاثناء كانت الاعمال لاستعادة السودان جارية حتي سقوط الخرطوم وام درمان وتمت استعادة السودان في سنة ١٨٩٨ فهل يسأل وزير الخارجية وحده اذ هو وقع بعد ذلك اتفاقاً باسم الحكومة .

كان خصومه يقولون : ولكنه المسئول الاول والمباشر . فهو الذي وقع باسمة وبيده ثم انه فضلا عن ذلك كان أكثر من كل الوزراء الذين معه مسئولية لانه كان أقواهم وأذكاهم وأقدرهم . بل لعله هو الذي أقنعهم بالقبول . وماذا تريد من مصطفى فهمي والذين كانوا معه وهم كانوا مثل الاستمانة والضعف . لقد كان بطرس هو العنصر القوي الوحيد فيهم فهو لذلك مسئول دونهم . ثم لنقل الحق أيضاً . ان بطرس كان قبطياً . وكان للاقباط زعيما والاقباط كانوا يومئذ وفى نظر دعاة الحركة الوطنية

المصرية متهمين بمالأه الانكليز على بلادهم . فبطرس اذن قد وقع اتفاقية السودان ممالأه للانكليز وتفريطاً في حقوق بلاده . كذلك كان يقول خصوم بطرس . وكذلك مايزال البعض يحسب . ولو فى دخيلة نفسه حرصاً على وحدة الامة المقدسة فى الايام الحاضرة . لكن للتاريخ حكماً آخر تجب المجاهرة به احقاقاً للحق . فمصر يوم اتفاقية السودان كان تابعة لتركيا وكانت لا تستطيع أن تمضي اتفاقاً تنقص به من سلطتها أو سيادتها على أي جزء من الاجزاء التابعة لها . أو التى كانت تابعة لها وعادت اليها . وقد أبلغت الحكومة المصرية حكومة الباب العالي ان انكلترا تريد أن تتفق مع مصر اتفاقاً مقصوراً على ادارة السودان لتتمكن بذلك من الغاء الامتيازات الاجنبية فيه . ولتستطيع بما تبيحه لها الشركة في الادارة أن تسهر على أملاكها الافريقية من غير أن يضر ذلك حقوق مصر في السودان باعتباره ولاية منها تابعة لحكم الخديوي . وبالرغم من تكرار الكتابة في هذا الامر الى الحكومة التركية فانها لم تحرك ساكناً . ولم تشر للنصيحة ولم تظهر مجرد استعدادها لتعضيد مصر اذ هى وقفت بازاء انكلترا موقفاً خاصاً . وعلى ذلك القت مصر نفسها وحيدة بازاء انكلترا مضطره أن تحل معها هذه العقدة بعد أن كانت فرنسا قد ضربت قبيل ذلك في حادثة فاشوده وتضعضع سلطانها بما قطع كل رجاء في مداخلتها كما انقطع الرجاء في مداخلة غيرها من الدول مع هذا لم يخرج اتفاق يناير سنة ١٨٩٩ السودان من ولاية الخديوي

ولم يجعل انكلترا شريكة فيه . بل هو اتفاق مقصور على ادارة السودان بنصه وتفسير لورد كرومر وغير لورد كرومر من الكتاب الانكليزي وساستهم وتنفيذه في المدة التي تلت عقده . فقد كان حاكم السودان العام برغم أنه حاكم عسكري في بلاد خاضعة للحكم العرفي . لا ينفذ أمراً ولا ينشر قانوناً الا بعد أن يبعث به الى مجلس النظار في القاهرة . وبعد أن يرد المجلس اليه الامر أو القانون أو الارادة السنية كما هي أو منقحة حسب ما تراه الوزارة المصرية. فاذا كان قد حدث بعد ذلك ان استفادت السلطة الانجليزية من ضعف الوزارات التي وليت الحكم في مصر وان مدت ادعاءاتها الى أكثر مما يبيحه الاتفاق المذكور فليس الذي وقع الاتفاق في الظروف التي اشرنا اليها مسئولا عن شيء منها .

هذا هو حكم التاريخ . وهو الحق في أمر اتفاقية السودان وموقف بطرس باشا غالي منها . على ان ما تلاها من نشاط الحركة الوطنية بزعامة مصطفى كامل ومن طعنها على المعاهدة واتخاذها ذريعة الهجوم والمقاومة جعل الوزارة المصرية أشد ميلا للتفاهم مع الانجليز تفاهما يخفف مدة هذه الحركة ان كان ذلك مستطاعا . ويقف في وجه هذه الثورة التي تهدد النظام والامن . تجامل رؤساء الوزارات المصريين الحكومة الانجليزية باعطائهم لاتفاقية السودان معنى غير معناها الاول يخول لانكلترا فيه سلطانا لم يقصد الاتفاق تخويلها اياه » .

ولنقدم البرهان العملي على صدق القول نستشهد بتمسك الجبهة الوطنية

في مفاوضات سنة ١٩٣٦ وعلى رأسها الزعيم الجليل مصطفى النحاس باشا بتلك الاتفاقية بالرغم من أن الانكليز سبق وقطعت المفاوضات سنة ١٩٣٣ بسببها . وانما كان ذلك لعرفانهم بما تثبته من الحق لمصر على السودان وكما ان الوفد المصرى وعلى رأسه سعد زغلول زعيم الوطنية . لم يقل فى وقت من الاوقات المفاوضة بخصوص السودان على اساس هذه الاتفاقية على انها أعدل أساس وأحسن مقياس للحكم .

حادثة دنشواي : فى الظروف الماضية كان سلطان الانجليز فى مصر قد بلغ أقواه وأشده . فلم يكن أمر ما مهما بلغت تفاهته يبرم أو ينقض من غير اقرارهم عن طريق موظفيهم الذين كانوا متغلغلين في الوظائف الحكومية . بل بلغ بهم الامر ان كان الموظف المصرى مهما سمت مرتبته وعظم مركزه ليس له الحرية ليبت فى أى عمل بلا مشورة الموظف الانجليزي الذى في مصلحته أو وزارته مهما كان مركز هذا الموظف الانجليزي صغيراً . فقد كانت انجليزيته أحسن كفيل له بحشر أنفه فى كل شيء . فكان الامر والنهي ليس موقوفاً فقط على العميد الانجليزي بل فعداه الى مستشار الداخلية والى كل انجليزي في مصر حتى ملاحظ الطرق والمدرس فى وزارة المعارف وازاء هذا السلطان الانجليزي فى مصر كانت الحركة الوطنية المصرية تنمو وتقوي . وكانت الثورة النفسية تتفاعل فى نفوس الشعب الوادع المطمئن الذي لا يقبل مذلة ولا خضوعا فملأت الثورة النفوس وكادت أن تفيض .

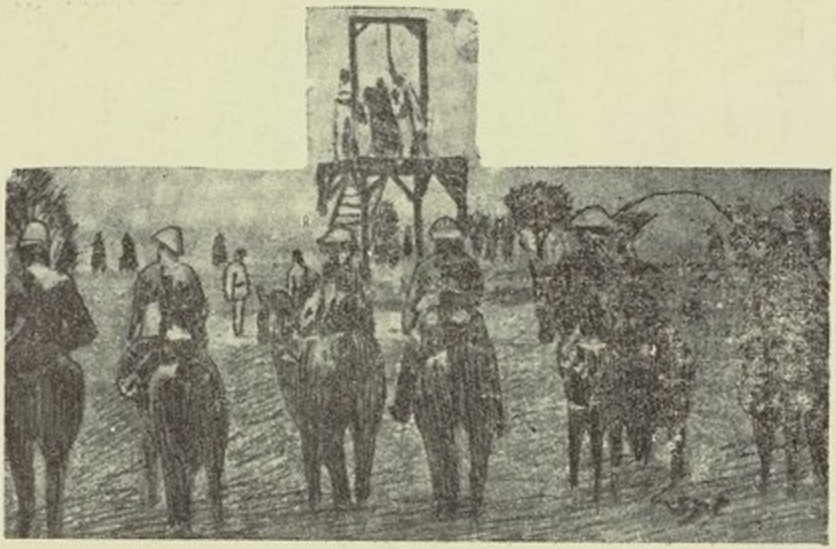

المشنقة تعمل عملها في دنشواي أمام الاهالي وبحراسة الجنود الانجليز

حتى كانت سنة ١٩٠٦ اذ علم الانجليز لأول مرة ان أعيان المصريين الذين حسبوهم بمعزل عن الحركة الناشئة يؤازرون الحركة من أعماق قلوبهم ولا يحجمون عن التصريح بتأييدها فى الآونة المناسبة . فلما حضر ولي عهد انجلترا الى مصر . كتب اليه جماعة الاعيان يذكرونه بوعود الجلاء ويومئون الى خطة انجلترا في معاملة البوير بالحسنى بعد هزيمتهم فى ميدان القتال . ويعلنون رغبتهم في استقلال الحكومة المصرية راجين من حكومة الاحرار في انجلترا أن تكون على مبادئها فلا تنكر على مصر حقها في الحرية . وفي هذه السنة وقع الحادث الاكبر الذي علم منه حقيقة الشعور الذي يشعر به الفلاحون الصغار لا بسى الجلاليب الزرقاء نحو الاحتلال البريطاني . بعد ما حسبوهم زمنا طويلا من انصارهم الراغبين في حمايتهم لهم من ظلم الباشوات ومفاسد الحكومة الوطنية . . ونعنى به ذلك الحادث الفاجع الذي اشتهر باسم قضية دنشواي . والذي كان له الاثر في ايقاظ الامة المصرية مالم يبلغه أثر أي حادث آخر . اذ ليس في مقدور مؤرخ أن يذكر قبل الحرب العظمى حادثاً جمع قلوب المصريين كما جمعتها قضية دنشواي . وآلم نفوسهم كما آلمتهم . وأحيا شعور التضامن القومى كما أحيته بينهم . والتهم الشعور الخبيث الذي يثيره بعض من لاضمير لهم فوحدت قلوبهم

وينبئنا عن ذلك بعض النبأ ما كتبه قاسم أمين في مذكراته حيث يقول

« رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلباً مجروحاً وزوراً مخنوقاً مبحوحاً . ودهشة وعصبية بادية في الايدي والاصوات . كان الحزن

على الجميع . حزن ساكن مستسلم للقوة مختلط بشيء من الدهشة والذهول رى الناس يتكلمون بصوت خافت وعبارات متقطعة وهيئة بائسة منظرهم يشبه منظر قوم مجتمعين في دار ميت كأنما أرواح المشنوقين تطوف في كل مكان من المدينة .

والواقع ان قضية دنشواي كان ازاء تأثيرها البشع لها تأثير طيب . اذ آمن مستعمري الانجليز بعدهـــا بالقوميه المصرية ايماناً لا يجدي فيه التجاهل . وعلموا ان الفلاح وابن المدينة المتعلم في الشعور الوطني سواء . وان اصطناع المودة للفلاحين لا يجعلهم انجليزاً ولا ينسيهم انهم مصريون ورأوا رأى العين نفور أصحاب الجلاليب الزرقاء منهم اذ انما رأوا على أرضهم وأرض أبائهم وأجدادهم . فخفضوا قليلا من دعواهم ان الفلاحين يحبونهم . أما تبسيط الحوادث نفسها فهو حسب ماورد في احدى الجرائد اليومية الكبرى كالآتى :

في ١١ يونيو سنة ١٩٠٦ غادرت فرقة من الجيش الانجليزي القاهرة تقصد الاسكندرية بطريق البر وبعد أن قطعت في سيرهـا يومين وصلت الى ناحية كمشيش التابعة لمركز تلا من مراكز مديرية المنوفيـة . وفي صباح يوم الاربعـاء ١٣ يونيو وكان القومندان هو الميجر بين كونين قد سبق له ان اصطاد الحمام من ابراج قرية دنشواي في أعـــوام سابقه فاقترح على بعض رفاقه وهم الكابتن بول والضباط بورتر سميث والدكتور بوستك طبيب الفرقة أن يذهبوا الى دنشواى لوفرة الحمام فيها ولقربهـا

من النقطة التى عسكرت فيها الفرقة .

استعدادات وأوامر : وكانت قد جرت العادة بان تصدر الاوامر الى عمد البلاد التى تمر بها فرقة الجيش (جيش الاحتلال) لمساعدة الجنود عند الحاجة . فلما وصلوا الى منوف أبلغوا مأمور المركز انهم يرغبون الصيد في دنشواي . لتعد لهم المعدات اللازمة . ثم قاموا بعد ذلك من كمشيش حيث عسكرت الفرقة واتجهـــوا الى دنشواي في مركبات أعدهـا لهم عبد المجيد سلطان بك من أعيان الناحية . ولكن حدث ـ لسوء الحظ ـ ان ضابط بوليس النقطة التى تقع دنشواى في دائرتها كان مهتما بتحقيق جناية كبيرة وان مأمور مركز شبين الكوم كان مشتغلا باطفاء حريق شب فى عاصمة المديرية ودمر عدد كبير من المنازل . كما ان عمدة دنشواى وكان اسمه محمد الشاذلي كان مدعوا الى المركز لحضور اجتماع احدى جمعيات العمد واكتفى ضابط البوليس بتكليف الاومباشى احمد حسن بالذهاب الى دنشواي واعطاء الاوامر بالمحافظة على الضباط الانجليز عند حضورهم . واتجه الامباشى فعلا الى القرية ووجد الشيخ عمر زايد نائب عمدة القرية فأبلغه أمر الضابط كما أبلغه الى شيخ الخفراء عامر عدس . ولما وصل الضباط الانجليز الخمسة الى دنشواي قسموا أنفسهم الى قسمين قسم وقف على السكة الزراعية لصيد الحمام كما سبق لهم أن اصطادوه فى دنشواي من سنوات سابقة . ولم يفكر أحد في الاعتداء عليهم . وقسم آخر هبط الى القرية . وجاس خلال اجران القمح التي كانت ممتلئة وقتئذ

كيف حدثت النكبة : وحدث ان حمامتين كانتا واقفتين على جرن محمد عبد النبي المؤذن وكانت أم محمـــد زوجة محمد عبد النبي جالسة على النورج تسوق المواشي . وكان شحاته أخو زوجها عبد النبي يصلح القمح تحت عجلات النورج . فأقبل أحد الضباط الانجليز وأطلق بندقيته على الحمام الذي على الجرن فصاح به شحاته أن يكف عن ذلك خشية احراق الجرن . ولكن الضابط لم يعبأ بكلامه أو لعـــله لم يفهم ما قاله شحاته واستمر فى اطلاق الرصاص قاصداً اصطياد الحمام . فأخطأ المرمى وأصاب أحد الاعيرة أم محمد فصرخت وسقطت على الارض واشتعل الجرن . وعندئذ أخذ شحاته يصيح ويستغيث معتقداً ان زوجة أخيه قد ماتت وأمسك بالضابط الانجليزي وقبض على البنـــدقية مستمراً فى الصياح والاستغاثة حتى أقبل أخوه محمد عبد النبي زوج أم محمد . كما أقبل باقي الضباط الانجليز لانقاذ زميلهم . وتجمهر صبية القرية وأطفالها . واتصل الخبر بشيخ الخفراء عامر عدس فحضر ومعه محمـــد شحاته داود الخفير وبعض الخفراء الآخرين لمنع الاهالي من الاعتداء على الضباط الانجليز ولكن الضباط توهموا خطأ ان الخفراء يريدون الفتك بهم فأطلقوا النار وأصاب عيار ناري منها شيخ الخفراء عامر عدس في فخذه الايسر وسقط على الارض كما أصاب عيار آخر الخفير محمد شحاته داود . وثالث أصاب على الدبشة :

ظروف الحادث السيئه : اعتقد الجميع ان شيخ الخفراء عـامر قد

توفى فأخذ الصبية يلقون الطوب على الضباط الانجليز . كما اعتدى عليهم بعض الاهالي بالعصي فاصيب الميجر بين كوفين فى ذراعة وجرح الضابط سميث جرحاً خفيفاً. ولحسن الحظ لهذين الضابطين ان الخفراء احتجذوهما مع ضابط ثالث وأخذوا الاسلحة منهما حتى حضر ضابط البوليس فأوصلهم الى المعسكر . أما الضابط الانجليزي الكابتن بول والدكتور بوستك فلما رأيا تجمهر الاهالي تركا دنشواي وأخذا يعدوان حتى قطعا نحو ثمانية كيلو مترات فى ذلك الجو الشديد الحرارة وكان الكابتن بول قد اصيب في رأسه وهو فى دنشواي اصابة شديدة . من حجر قذفه عليه أحد الاطفال ولذلك لم يكد يصل الى السوق التابع لشركة الاسواق على مقربة من سرسنا حتى كان الاعياء قد بلغ منه أشده فسقط على الارض مغشياً عليه من تأثير شدة حرارة الشمس واصابته فى رأسه ولم يلبث أن توفى بعد قليل . أما الدكتور بوستك فيقال انه ترك زميله وتابع العدو حتى وصل الى ترعة الباجورية فسبحها حتى عبرها الى الضفة الاخرى حيث معسكر الفرقة الانجليزية فأخبر اخوانه والجنود بما حدث فحفوا بالقمصان والسراويل والاسلحة عدوا الى السوق فوجدوا الكابتن بول ملقى طريحاً على الارض حيث تركه زميله . وقد اجتمع حوله بعض الاهالي . فلم يكد بصرهم يقع على الجنود الانجليز حتى خافوا وأسرعوا بالدخول في السوق . وهنا اهتم بعض الجنود بضابطهم المصاب وحملوه الى المعسكر .

فظائع : واقتفى البعض الآخر أثر الاهالي الذين دخلوا السوق

وقبضوا عليهم وأوثقوا كتاف أربعة منهم . الا أن رجلا خامسا من اهالي سرسنا يدعي سيد احمد سعيد لم يستطيعوا شد وثاقه فافلت منهم وهرب الى داخل السوق وأخذ يعدو حتى وصل الى طاحونة أعدتها شركة الاسواق لتجربة المواشي التي تباع فى السوق . الا ان ذلك لم يمنع عنه القضاء المحتوم فقد قتله الانجليز شر قتلة ظنا منهم انه اشترك في قتل ضابطهم « وجعلوا أكبر قطعة فى رأسه في حجم القرش » على حد قول احدى المجلات .

واتصل خبر حادث دنشواي بأولى الامر في وزارة الداخلية فظهر اهتمام غير عادي اذ انتقل مدير المنوفية ورئيس نيابتها ومأمور المركز وعدد كبير من ضباط المديرية وجنودها المسلحين . كما حضر من القاهرة مستشار الداخلية الانجليزي واحد مفتشيها . وبدأوا التحقيق فى سرسنا وقبضوا على بعض أهلها ثم انتقلوا الى دنشواي حيث كانت القوات العسكرية قد سبقتهم اليها والقت الرعب في نفوس اهلها وأمر المحققون بالقبض على عدد كبير من اهالي البلدة وخاصة من كان ينتمي منهم الى اسرة محفوظ التي كان يرأسها حسن على محفوظ وزجوا في مسجد القرية الذى تحول الى سجن بأمر المحققين . وشعر الاهالي بهول الخطر الذى يهدد ابنائهم فأخذوا يصيحون ويملأون الجو بكاء وعويلا . ولم يستطيع المحققون ان يستمروا في تحقيقهم ازاء تلك المناحات التى سادت القرية فاضطروا الى الانتقال الى عزبة حسين بك سعيد

بلاغ الحكومة عن الحادث : واصدرت الحكومة بلاغاً عن الحادثة وكان بلاغا مطولا جدا يشعر بالاهمية والخطورة اللتين ارادت الحكومة أن تضيفها على الحادث . ويلاحظ فى هذا البلاغ ان الحكومة جزمت بأن الانجليز لم يبدأوا الاعتداء على الاهالي وهي نقطة لها خطورتها القصوى في مجرى الحادثة وتطورها كان يجب ان يتركها البلاغ الى تقدير المحكمة التى ستفصل فى القضيه . ولم يكتف البلاغ بذلك بل جزم كذلك بأن الاعتداء على الضباط الانجليز كان عن تعمد وان الاهالي هم الذين اشعلوا النار عمدا فى جرن محمد عبدالنبي المؤذن . اشاره للابتداء بالهجوم العمومي . اما مسألة قتل سيد احمد سعيد من اهالى سرسنا وهو الذى تبعه الجنود الانجليز الي داخل السوق وقتلوه فى مخبأه بالطاحونه شر قتلة . فقد ذكر البلاغ ان جثته « وجدت فى نفره في احدى زوايا السوق » وقد قرر الكاتبن بوستك وطبيب المركز اللذان عاينا الجثه بعد هذه الحادثة بعشرين ساعه ان الوفاة ناشئه عن ضرب القتيل بآله حادة

محاكمه المتهمين امام المحكمه المخصوصه : ولعل الطريقه التى حوكم بها المتهمون فى حادثة دنشواي هى اظهر صفه تميزت بها تلك الحادثه المشؤومه فقد رأينا انها لاتعدو حضور اربعة ضباط الى القريه لصيد الحمام من ابراجها فاذا سلمنا جدلا بصحه الوقائع التى نسبت الى المتهمين فقد كان واجباً أن تحقق معهم سلطات التحقيق العادية المألوفة في مصر ثم يقدمون الى الجهة القضائية صاحبة الاختصاص الاصلي . ولكن الانجليز

ارادوا المغالاة في الثأر ظناً منهم ان هذا فيه اقراراً لهيبتهم فعمدوا الى نبش لائحة قديمة كان اللورد كرومر قد أرغم الحكومة المصرية على اصدارها . وهى لائحة المحكمة المخصوصة التى تنفذ أحكامها فوراً ولا تقبل طعناً . ولا هى مقيدة باحكام قانون العقوبات بل تحكم فى الجنايات والجنح بالعقوبات التي ترى لزوم الحكم بها بما في ذلك الاعدام .

وبالفعل عقدت المحكمة المخصوصة لمحاكمة المتهمين فى حادث دنشواى ـ وعددهم ٥٢ متهما ـ فى سراي مديرية المنوفية في صباح ٢٣ يونية سنة ١٩٠٦ وكانت الجلسة برئاسة بطرس غالي باشا وزير الحقانية حينذاك وعضويه مستر جود المستشار القضائي بالنيابة ومستر بوند وكيل محكمة الاستئناف الاهلية العليا والكولنيل لادلو القائم باعمال المحاماه والقضاء في جيش الاحتلال واحمد فتحي زغلول بك رئيس محكمة مصر الابتدائية وعثمان مرتضي بك سكرتير الجلسة . ووقع الاختيار على ابرهيم الهلباوي بك المحامي ليكون ممثل الاتهام وليثبت التهمة على المتهمين لقاء ٣٠٠ جنيه حتى قال له الشاعر المعروف حافظ ابرهيم بك .

انت جلادنا فلا تنسى انا قد لبسنا على يديك الحدادا

قرار طبيبين انكليزين : ولا يتسع المجال في هذه الصفحات لسرد جميع الاجراءات والشهادات التي استغرقت المحكمة فى سماعها ثلاثة أيام كاملة . ولكنا نكتفى بأن نذكر ان الدكتور بوستك طبيب الجيش

الذي كان بين المجني عليهم كان يتجلى ميـــله الى الصدق وعدم رغبته فى تقرير امور لم يكن في امكانه أن يقطع بها وبصحتها وانه قرر انه كشف على الكابتن بول فرأى ان سبب الوفاة هو من احتقان فى المخ ومن ضربة الشمس . ثم شهد الدكتور نولن الطبيب الشرعي الانجليزي بأن الضربة التي أصابت الكابتن بول ـ وهو الانجليزي الوحيد الذي توفى في الحادثة ـ هى التي جعلت الشمس تؤثر بسرعة في المخ . فضربة الشمس هى السبب المباشر للوفاة . وهنا سأله رئيس الجلسة بطرس غالي عما اذا كان يعتقد انه اذا لم تحصل ضربة الشمس هل كانت تحدث الوفاة من اصابة الحجر فى الرأس ؟ فأجاب الدكتور « لا تحصل الوفاة من الاصابة »

وعاد بطرس غالي السؤال . هل اذا لم تحصل اصابة الرأس بالحجر أكانت ضربة الشمس تكفي وحدها لوفاته ؟ فقال «انها كافية» وبرغم هذه الشهادة وغيرها . وبالرغم من ميل بطرس غالي الواضح لانصاف المتهمين واحقاق العدل موضعه فقد طلب الهلباوي وأصر في مرافعته على الصاق تهمة القتل والاعتداء تعمداً بالاهالي المساكين وطلب الحكم عليهم باقصى العقوبات ومنها الاعدام .

وفي يوم ٢٧ يونيو سنة ١٩٠٦ اجتمعت المحكمة لاصدار الحكم وبتأثير الاغلبية الانجليزية صدر الحكم بجميع الاصوات ماعدا صوتي بطرس غالي وفتحي زغلول حكماً يقضي باعدام أربعة من المتهمين اعتبرتهم زعماء للآخرين وهم حسن محفوظ ويوسف حسين سليم والسيد احمد محفوظ

وشحاته عبد النبي المؤذن وبجلد ثمانية آخرين أمام الفلاحين .

وليتصور القاريء وقع هذا الحادث الاليم فى نفوس المصريين ويعينه على التخيل معرفه طريقة التنفيذ . فقد كان الموظفون الانجليز الذين أقلقهم بوادر الوثبة الوطنية يتوقون الى مناسبة يضربون فيها الضربة المصمية ويبثون فيها رهبة الدولة البريطانية فلم يترددوا في اغتنام هذه المناسبة وأصدروا الاوامر بارسال المشانق وأدوات التعذيب الى دنشواي قبل انتقال المحكمة . وبعد يومين اثنين من وقوع الحادث كانت المحكمة قد انعقدت وكان الحكم قد صدر وكان المستشار الانجليزي قد صمم أن لا يرجع الى القاهرة الا بعد تنفيذه بين الجند المسلح على مرآى من الآباء والابناء والاقارب والازواج . وازدادت شناعة الحكم بشناعة التنفيذ . فكان المشنوق ينظر الى الجمهور والجمهور ينظر الى المشنوق . والشيوخ والاطفال والنساء ينظرون من قريب الى المشنوقين والمجلودين بين صفوف الجند المحدقين بهم وهم يقعقعون بالبنادق والسيوف . والمستشار فى خيلائه يجول بينهم ويصول .

لقد أقسم لي صديق لابي انه كان يستمع للنبأ هو وثلاثة آخرون فأغمى على أحدهم ولم يستمع لباقي الخبر والراوي يحكي لهم بصوت متهدج مخنوق بالعبرات . وحسب القاريء أن يعلم ان هذا الحادث الذى سبب غضب الامة هال الوزراء البريطانيين أنفسهم وزعزع بينهم سمعه كرومر بعد طول الاعجاب به الاعتماد عليه . ودق المسامير الاخيرة فى نعش

سياسته المصرية فعاد الى القاهرة مقسوراً على اتباع سياسة جديدة غير سياسة التجاهل والكبرياء . ولم يكن يدري انها سنته الاخيرة التي عزل من بعدها . واذيع خبر عزله قبل أن يعلم هـــو به . ولولا عادة الحكومة البريطانية أن تدارى هزيمة رجالها لعزلته عقب الحادث . غير ابطاء لفرط ما فاجأها من سخط الامـــة المصرية وسخط الذين سمعوا به في أوربا وبالاخص في انجلترا نفسها بل ولم يسعها سوى الموافقة على العفو عن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة المؤبدة .

رياسته للوزارة : بقيت في الحكم وزارة مصطفى باشا فهمي ١٣ سنة وبطرس باشا غالي وزيراً للخارجية أتم فيها كثير من الاعمال الجليلة ورد ذكر بعضها فيما قبل واستقالت الوزارة في ١٠ نوفـــمبر سنة ١٩٠٨ فكلف الخديوي بطرس غالي باشا بتأليف الوزارة الجديدة وهـا نص الخطاب السامى :

سعادتلو بطرس باشا غالي حضرتلري .

بناء على ماهو معلوم فيكم من الكفاءة والدراية ووثوقنـــا بكم قد وجهنا لعهدتكم مسند رئاسة مجلس النظار لحكومتنا وعلى هـذا نكلفكم بتشكيل هيئة نظارة جديدة . وكونوا على يقين من تعضيدنا ومساعدتنا اياكم في جلائل الاعمال التى عهدنا بها اليكم ونسأل الحق جلت قدرته أن يوفقنا جميعاً لما فيه خير البلاد ورفاهية العباد انه نعم المولى ونعم المصير

عباس حلمي

وها نص الرد الرسمي :

مولاي . تفضلت ذاتكم العلية بتوجيه رياسة مجلس النظار الى عهدتي وكلفتني بتأليف هيئة نظارة جديدة . فأتشرف أن أرفع الى مقام سموكم اسماء من تشكل منهم هذه الوزارة . وهم أصحاب السعادة :

سعد باشا زغلول . ناظراً للمعارف العمومية — حسين باشا رشدي . ناظراً للحقانية — محمد سعيد بك . ناظراً للداخلية — اسماعيل باشا سري . ناظراً للاشغال العمومية وللحربية والبحرية — احمد حشمت باشا . ناظراً للمالية .

فان حازت هذه التعيينات القبول لدى سدتكم العلية . ألتمس صدور الامر الكريم باعتمادها وتقليدي نظارة الخارجية كما تعطف جنابكم الرفيع وعهد الى رياسة مجلس النظار واني مع غاية الاجلال لمولاي

بطرس غالي

وصدر الامر العالي في ١٢ نوفمبر سنة ١٩٠٨ باعتماد الهيئة الجديدة واعتماد تشكيل وزارة بطرس غالي باشا . ولما تشرف بعد ذلك النظار بمقابلة الخديوي شاكرين قال عن بطرس غالي باشا « انى أخذته لرياسة الوزارة لانه طويل الخبرة في أعمال الحكومة ولانه مخلص لبلادي ولشخصي وطالما كان عوني في صعاب الامور وشدائد الاحوال »

أهم أعماله : أعماله في رياسة الوزارة لا حصر لها اذ تتفق كثرتها رغم المدة القصيرة التي تولى فيها الرياسة مع نشاطه وذكائه وخبرته مع

الحب الذي يكنه فى قلبه لوطنه .

مجلس الشوري : سعى جهده الى التوصل لحكم الامة ورقابة النواب للحكومة فعمل على تحقيق رغبة الامـــة وابتديء باقتراح تعين البرنس حسين باشا كامل رئيساً لمجلس الشوري (السلطان حسين كامـل فيما بعد) ووافق الخديوي وأصدر أمره في ٣٠ يناير سنة ١٩٠٩ فاكتسب مجلس الشوري هيبه وسلطة وقوة . وتبع هذا العمل بتنفيذ احدى مواد القانون النظامى للمجلس الخاصـة بحضور الوزراء جلسات المجلس وفى ٥ ديسمبر سنة ١٩٠٨ أحضر النظار معه والقى على أعضاء المجلس خطبة جاء فيها :

« ان المادة ٢٧ من القانون النظامي أجازت للنظار الحضور في جلسات مجلس الشوري والاشتراك في مداولاته برأي شوري . ولما كان الغرض من ذلك هو أن يوجد دائما تفاهم بين هيئة الحكومة وبين أعضاء الشوري فى درس المشروعـات التى تعرض عليهم . فلهذا قد عزمت أنا ورفقائى على حضور جلسات المجلس وأتعشم أنه بهذه المشاركة تتقوى ثقة كل منـا بالآخر . ويزول سوء التفاهم الذي كان يوجده دائما عدم تمكن حضراتكم من أخذ الايضاحات التى ترون لزوم طلبها من النظار »

ثم تبع ذلك بأصدار أمر بجعل جلسات المجلس علنية حتى يحقق رقابة الامة ويقويها وأخذ فى تحضير مشروع قانون لتوسيع اختصاصات مجلس المديريات .

ولما كانت الحركة الوطنية فى مصر قد ابتدأت أن تشتد فقد اتخذهـا

بطرس ذريعة وسعى سعيه لدى معتمد انكلترا في المطالبة بالدستور وانشاء نظام يقرب مصر من الحكم الذاتى .

أما مشروع مجالس المديريات السابق ذكره فقد أصدر به أمراً فى ١٣ سبتمبر سنة ١٩٠٩ وفيه توسعت سلطة هذه المجالس فكان لها الحق في فرض ضرائب معلومة على الاطيان لصرفها فى المنافع العامة وخصوصاً التعليم وكانت هذه خطوة طيبة له تذكر ازاء مجهوده القيم في سبيل اشتراك الامة مع الحكومة فى أعمالها وهو مجهود لم يكن أحد يحلم به أو يقوي على تنفيذه سوى بطرس الجبار . ومما يذكر له في هذا السبيل انه خاف من رفض مجلس الشورى لهذا القانون فحضر بنفسه الى المجلس حيث وضح لهم الامر . ورد على المعارضين الذين كان كل همهم ضياع الصالح العام بعدم افلات هذه السلطة من يدهم فأقنعهم وأفهمهم فوافق المجلس بالاجماع فكان هذا فوزاً عظيما له يذكر على انه مثال على قوة حجته .

وفي عصره أضحت الجرائد والمجلات تتكلم بملء الحرية وتنتقد السياسة غير ان بعض المجلات كانت تنتقد سياسته بلا مبرر وتحمل حملات شعواء على كرومر فلم يتسع صدر كرومر كما اتسع صدر بطرس فاستصدر أمراً خديويا باستعادة قانون سنة ١٨٨٢ للصحافة الذي يبيح للادارة حق انذار الصحف الجريئة وتعطيلها . ولما كان بطرس كل همه المطالبة بالحكم الذاتى لمصر . فقد سكت عن المعارضة على أن يجعل هذا الامر تكأة لنوال مطالب مصر . وأصدر هو أيضاً قانون النفى الاداري

لارهاب الجناة فظهر تأثيره الكبير في تقليل الجرائم واستتباب الامن .

واستمر يتابع بالاتفاق مع المعتمد الانكليزي ورضاء الخديوي وموافقة زملائه الوزراء وضع النظام الجديد للهيئة النيابية المصرية . وفي مدة حكمة طلبت شركة قنال السويس مد امتيازها لاربعين سنة فوعد بالموافقة اذا وافقت الجمعية العمومية المصرية على أن يكون رأيها فاصلا . وترك الموافقة لمجلس الشوري .

وذكر اللورد كرومر في خطبته المشهورة بدار الاوبرا في حفلة الوداع التي عملت له يوم السبت ٤ مايو سنة ١٩٠٧ لمناسبة مغادرته الديار المصرية وقال :

« وقد كان لحسن حظ مصر وحظي أنا أيضاً ان عاشرت لزمن طويل وزير الخارجية الحالي عطوفة بطرس غالي باشا الذي كان ذكاؤه الفائق سبباً في حل كثير من معضلات المسائل التي كان مركز هذه البلاد السياسي الخصوصي يحتم وجودها في كثير من الاحيان » .

وقال عنه الخديوي : « ان حبه لوطنه لا يزيد عنه سوى اخلاصه الحقيقي لي » .

واتفق في ذلك الجميع حتى هؤلاء الذين عادوه غيرة منه ومن عظمته لم يسعهم أن ينكروا اخلاصه لوطنه وحبه له .

ومما يذكر عن مآثره في حل المشكلات انه اغتنم ذهابه بمعية الخديوي

الى الاستانة سنة ١٩٠٥ وتشرف بالمثول لدى جـــلالة السلطان وجرى الحديث بينهما بالتركية فحل مشكة دير السلطان بالقدس . وكان للخديوي ثقة كبيرة فيه ويعول عليه فى الامور الهامة ولذلك كان أسفه كبيراً لاغتياله فتنازل لزيارته وهو مريض في المستشفى ثم زاره فى بيته بعد الوفاة لتعزية أبنائه وأخيـــه . وهذه عناية لم يسمع بمثلها فى مصر لان سموه لم يزر أحداً من سكان مصر غير اللورد كرومر قبل سفره مرة واحـدة وكانت زيارة رسمية وكان يميـل كثيراً للمطالعة في ساعات الفراغ وأكثر مطالعاته في التاريخ وكان له ميل للمواضيع الفلسفية النظرية وكان في داره مكتبة نفيسة أكثرها كتب قضاء وتاريخ وسياسة وادب وفلسفة وكان يطالع الصحف كل يوم ويروي انه كان يطالعها بسرعة غريبة فيستوعبها .

ومن الامثلة الطيبة التي تحكي عنه . انه زوج بعض انجاله فأبى أن يقيم لهم عرساً تنفق فيه الوف من الجنيهات بلا طائل . ولئن كان وزيراً من وزراء مصر وصاحب مال كثير . ومعروفاً بالسخاء فى الاعمال الخيرية فقد استعاض بمظاهر العرس الباطلة التصدق بثلثمائة جنيه على فقراء الجمعيات الخيرية الاسلامية والمسيحية . ولما سأله بعضهم في ذلك قال له دع النـاس يتعودون اشتراك الفقراء معهم فى افراحهم لا الاغنياء . فانك مهما أنفقت في عرس لك فقد لا تجد من هؤلاء من يفرح معك بقلبـه . أما الفقراء فانهم يشاركونك بعواطفهم جزاء اشتراكك معهم بعاطفة الاحسان اليهم .

الناحية الطائفية

تأليف أول مجلس ملي : بقلم الاستاذ توفيق حبيب الصحافي العجوز :

هو أول هيئة نيابية أهلية عرفتها مصر ويرجع الفضل في تأليفها وانشائها الى بطرس غالي . كان ذلك في سنة ١٨٧٤ .

ففي مساء يوم ٧ يناير من تلك السنة اجتمع فريق من الشبان الاقباط المستنيرين في دار أحدهم بالدرب الابراهيمي لتسليته وتعزيته في وفاة ابن عم له بمناسبة عيد الميلاد المجيد . وتذاكروا في امور طائفتهم عامة وأحوال البطريكخانة خاصة .

فاتفق رأي هؤلاء الشبان على ضرورة تأليف مجلس ملي يتولى النظر في امور الطائفة . وكتبوا الى الحكومة راجين اتمام مقصدهم ، وسري الخبر بين أعيان الطائفة فهاجوا وماجوا وأبلغ سمو الخديوي اسماعيل أن كبار رجال الطائفة غير راضين عن عمل هؤلاء الشبان . فاهتم سموه بالموضوع وانتدب أحد موظفي الداخلية للتحقيق ، فقام بالمهمة ورفع تقريراً أثبت فيه أن أولئك الشبان لا يريدون الا الاصلاح والخير المخلص لطائفتهم . فوافق سمو الخديوي على طلبهم وعين يوم ١٨ يناير سنة ١٨٧٤ لاجراء الانتخابات . وكان الشبان قد انتهزوا الفرصة فوضعوا على عجل لائحة المجلس الملي واجراء انتخاباته .

للاستاذ توفيق حبيب الصحافى العجوز فضل كبير في ابراز هذا الكتاب كاملا . وقد كلف نفسه مشقة البحث عن كثير من المراجع التاريخية والصور من اجلنا كما شرفنى باعطائى هذا المقال لنشره .

وعقدت جمعية عمومية في الدار البطريركية في اليوم المحدد تحت رياسة الانبا مرقس ، والقى فيها خطبة معلناً موافقته على انشاء مجلس ملي وكتب محضراً بذلك كان المرحوم فرج افندي ملـــكه (جد الصحافي العجوز) أول من وقع عليه وتلاه المرحوم دميان بك جاد باشكاتب المالية

وجرت الانتخابات . وتولى المجلس انتخاب البطريرك السابق الانبا كيرلس الخامس .

ثم تعقدت الظروف السياسية . وكان أول من فكروا فيه بعد هدوء الاحوال هو وضع قانون جديد للمجلس والانتخابات ، وهو المعروف حتى اليوم باسم لائحة سنة ١٨٨٣ .

وكان الفضل في وضعه وتنسيقه للمرحوم يوسف وهبه باشا .

وانتخب المجلس الثاني . ولكن لم يستمر طويلا لمعاكسة البطريرك وبطانته واصرار الرهبان على الامتناع عن وضع أوقافهم تحت مراقبة المجلس واشرافه . وبقيت أعمال المجلس معطلة وخشى المرحوم بطرس غالي باشا على الفقراء وضياع الحقوق فأنشأ مع جماعة من الاعيان وأعضاء المجلس الملي الجمعية الخيرية القبطية سنة ١٨٨٤ وساعدها أعيان المسلمين بتبرعاتهم وأذنت لها الحكومة باحياء حفلتها السنوية في الاوبرا . وبعد أن تولى سمو الخديوي السابق عباس حلمي باشا أريكة الملك « يوم ٨ يناير سنة ١٨٩٢ » الف فريق من الشبان الاقباط جمعية التوفيق القبطيه ، ووضعوا نصب عيونهم اعادة المجلس الملي، ولكن عاد البطريرك كيرلس الخامس الى

المعارضة .

معارضة البطريرك ونفيه : فاتفق كل من سمو الخديوي والسير افلن بارنج (اللورد كرومر) وبطرس غالي باشا على نفي البطريرك ومطران الاسكندرية الى دير يهما وتعيين أسقف صنبو نائباً بطريركا ، فانقسمت الطائفة على نفسها اذ أصدر البطريرك حرماناً على أسقف صنبو وكل من يتبعه . ولبث هذا الانقسام شهوراً حتى اتيح لانصار البطريرك السعي لاعادته فارجع ودخل مع مطران الاسكندرية العاصمة بموكب عظيم .

وقبل البطريرك أن تعين لمعاونته لجنة ملية لا يزال حياً من أعضائها صاحب السعادة قلبنى فهمي باشا وعبدالله بك أمين واستمرت هذه اللجنة تعمل فى دائرة معينة حتى توفى المرحوم بطرس غالي باشا وعين اللورد كتشنر معتمداً بريطانياً ، فوضع لائحة جديدة معدلة عرفت بلائحة سنة ١٩١٢ . ثم كانت الحرب العالمية . والحركة الوطنية السعدية ، وفي البرلمان تحت رياسة المرحوم سعد زغلول باشا تقرر الغاء لائحة كتشنر والعودة للعمل بلائحة سنة ١٨٨٣ . وتألفت وزارة محمد محمود باشا الاولى فوضع قراراً وزاريا باستئناف أوقاف الاديرة من أعمال المجلس . وفترت الهمم ويئس الشعب عامة ورجال المجلس خاصة من الاصلاح .

العهد الجديد : ثم تحركت الاذهان ورأى المتنورون من ابناء الطائفة انه لا يصح أن تبقى الحال على هذا المنوال . واتفق الرأي العام على ان السبب في الفتور الحاضر هو أعضاء المجلس الذين احتكروا النيابة ونهضت

الجمعيات القبطية، ويبلغ عددها أربعين جمعية، فدعت الشعب الى الاكتتاب للانتخابات وفتحت خزائنها لدفع قيمة التقييد . فبلغ عـــدد الناخبين ٣٥٠٠ شخص . والجميع يرجون لعهد النشاط الجديد هـذا خيراً راجين أن تفوز بالعضوية عناصر جديدة من الشبان العاملين لتحقيق مقاصد الشعب

توفيق حبيب

وبالرغم من عظم مشاغل بطرس غالي فان نشاطه الغير محدود لم يقصر على الناحية السياسية فيه . بل شمل أيضاً الناحيـة الطائفية . ويحق له أن يسمى مصلح الطائفة الاكبر . لذا فاننا نورد بعض ماله عـــلاقة بالطائفة القبطية ونهضتها حتى يمكننا أن ندخل منه الى الحديث عن مجهوده وأعماله للطائفة . انه ليس بخافي ان الطائفة القبطية هي أقدم طائفة ليس في مصر بل في العالم . كما انها امجد طائفة لاقت اضطهاداً لم تره طائفة أخرى ولا شعب آخر . ولما كان هذا ليس محلا لذكرها وانما نقول ان نهضتها الحديثه تبتديء من تولية الطيب الذكر المرحوم الانبا كيرلس وهو أول من أنشأ مدرسة قبطية في القطر المصرى وقد بنى البطركخانة وأنشأ لها مطبعة وغير ذلك من الاصلاح وقاسى في سبيل ذلك مشقات جسيمة فلما توفـاه الله . خلفه الانبا ديمتريوس في اواخر ولاية المغفور له محمـد سعيد باشا ثم تولى الخديوي اسماعيل باشا كانت الاوقاف القبطية تنقسم الى قسمين أوقـاف الاديرة في الاقاليم وأوقاف الكنائس في القاهرة وكانت أوقاف الاديرة تحت ادارة رؤسائها واوقاف الكنائس تحت ادارة البطريرك رأساً الا في

المسائل ذات الشأن فانه كان يعقد للنظر فيها مجلساً مؤقتاً مؤلفاً من بعض اعيان الطائفة .

فلما توفى الانبا ديمتريوس استدعت الطائفة الانبا مرقس مطران البحيرة وكان مقره في الاسكندرية ليكون وكيلا ريثما ينتخب بطريرك جديد . وكانت احوال الاوقاف والمدارس التي أنشأها كيرلس وسائر شؤون الطائفة قد تداعت الى الخمول والانحطاط فأحس بذلك اعيان الطائفة وهم نفر قليلون فاجتمعوا في منزل احدهم والفواجمية دعوها جمعية الاصلاح من المؤكد ان بطرس غالي كان احد مؤسسيها. وتعاهد الجميع على السعي الى ما فيه اصلاح الطائفة وارسلوا بمنشورات الى الانبا مرقس مطران الاسكندرية المذكور وذكروا فيها ماوصلت اليه الطائفة من الانحطاط وطلبوا منه الموافقة على انتخاب مجلس مؤلف من ٢٤ عضواً يساعدونه في ادارة مهام الامور بعد المشاورة واتفقوا على ذلك. وبالفعل صدر امر خديوي بذلك (كما ذكر الاستاذ توفيق حبيب في مقاله السابق) .

وبالفعل تم تنظيم أوقاف الطائفة بفضل بطرس غالي وزملائه وتم تنظيم مدارسها وكنائسها ومطبعتها وتم انتخاب أعضاء المجلس في ١٦ يناير سنة ١٨٧٤ وهو أول مجلس عقد بطريقة منتظمة وسنوا له قانونا وافق عليه الخديوي اسماعيل باشا وفي أول نوفمبر سنة ١٨٧٤ تولى البطريرك الانبا كيرلس وصدق على المجلس وثبته ثم حصل بينه وبينهم خلاف انتهى بتوسيط الحكومة وتعهد غبطة البطريرك بالاتحاد مع المجلس وتنشيطه

فانشئت المدرسة الاكليريكيه لتعليم الرهبان بعد تولية البطريرك بيضعه اشهر

مناقبه واخلاقه : قد تبين مما ذكرناه من ترجمة تاريخ حياته انه كان عالي الهمة كبير المطامع ذكى الفؤاد قوي الحافظة شديد العارضة . وكان قوي البنيه ربع القامه ممتلىء الجسم . ونظراً لثباته وقـــوة عزيمته لم يكن يصعب عليه عمل . فارتقى من بين العامه الى اسمى المناصب المصرية بعد الخديوي بجده وقوة عقله وثباته فيصح ان يكون مثالا لطلاب العلى . وكان واسع الاطلاع فى أهم مناهج الحكومة المصرية في المالية والقضاء والسياسة فضلا عن معرفة اللغات فانه اتقن منهـــا العربية والفرنساوية والانكليزيه والايطاليه والتركيه ويعرف ايضاً القبطيه وبعض الالمانيه .

وكان مستقل الفكر يكره الداله والوساطه وينظر الى حقائق الاشياء دون اعراضها . ومما يروي عن تقديره للاشياء حق قدرها انه لما اخذت الحكومة في انشاء المحاكم الاهليه وكان هو وكيلا للحقانية احتاجت الحكومة الى موظفين لتلك المحاكم فاعلنت ذلك . وتقدم طلاب الخدمة بالعرائض ولكل منهم وسيط من الكبراء على جاري العادة فى ذلك العهد . اذ كان للداله والوساطه شأن عظيم . واستخرج كتاب الحقانية اسماء الطالبين فى الكشف دونوا فيه اسم كل طالب وذكروا الى جانبه اسم الكبير الذي توسط له واوصى به . ورفعوا ذلك الكشف اليه فقرأه فرأى اسم احد الطلاب فى آخر الكشف وليس له وسيط . وكان قد تحقق بالفعل انه كفء للعمل . فنقل اسمه الى أعلى الكشف وكتب

بجانب اسمه في محل الوسيط لسائر الطلاب (وسيطة الله) يريد أن لا وسيط له غير الله فنال الوظيفة .

ومما يؤكده من عاشروه وعرفوه انه كان واسع الاطلاع فى احكام الشريعة الاسلامية وقد شهد له ائمتها بالتبحر فيها . وكان رسول سلام بين الخديوي واللورد كرومر ايام تمسك كل منهما بحقوقه . فرجل حوى هذه الصفات ومن الله عليه بهذه الهبات وخدم مصر كما رأينا اجل الخدمات لجدير بقول السير جراي .

« اننى لا اود ان اسمع كلمة سوء عن بطرس باشا فان خدمات الرجل اعظم من ان تؤثر عليها - فاسف المتطرفين وذوي المآرب والاهواء »

ويكفي ان نقرأ ونمعن للرسالة التى كتبها الاستاذ ابرهيم محمـــود الوردانى وهو اقرب الاحياء لابرهيم ناصف الوردانى قاتل بطرس غالي

قال الاستاذ ابرهيم محمود الورداني « كان بطرس غالي من الشخصيات العظيمة التى برزت في تاريخ مصر الحديث واعترف له الجميع بالنبوغ والذكاء والاخلاص . فانه جمع الى العلم والعمل وخصاله تظهر فى ثبـــات جنانه وسعة صدره ومحبته لوطنه التي قد لا أجد من يوازيه من رجالات مصر فيها

واننى اذا حاولت أن اكتب عن بطرس غالي وأعماله الهائلة احار كيف اوفق بينها وبين تلك الحادثة الشنيعة وهـذه المأساه الفـاجعة التي ختمت بها حياته وأصابت مصر فى الصميم بفقد أعز ابنائها . هـذا الرجل قد اضطهده الزمان وظلمه . فقدمه الى امة لا تستحقه وجاء به فى وقت

كان يجب أن تنضام مصر وتسير وراءه . . تقدم اليها مخلصاً ممثلاً عزيمة وايماناً فما وجد الا متاعب وعثرات وما رأى الا نعصب مقيت استولى على أفئدة البعض نتيجة غيره مزجوها باسم الدين .

ان بطرس غالي لم يخـــدم طائفته بقدر ما خدم مصر . بينما كانت طائفته في أشد الحاجة اليه اذ كانت في حالة عصبية تلهف لشخص مثله ينقذها . ولكن الرجل ابى الا ان يخدم مصر بما فيها من اقباط ومسلمين بل قد أدى للمسلمين من الخدمات مالم يؤدها مسلم للمسلمين حتى قال عنه الشيخ النواوي شيخ الجامع الازهر وقتها أمام الخديوي « ان هذا الرجل خدم الاسلام والمسلمين اكثر من المسلمين أنفسهم » ولم يكن يدفعه في ذلك الا نصرة وطنـــه وتقديمه خدماته للجميع كى لا يتهمونه بالتعصب فينفرون منه . ولكنه وجد اعراضاً بل رأى قتله أنمه تقدموا واغتالوا حياته الغالية .. لفظه هذا الوطن على يد أحد الشباب المتهور المأفون بأن قتله فرسم التاريخ على هذا الشعب المسكين رمز الانحطاط والاثم . وخط عليه الدهر وصمة العار التي لا تمحى .. واذا كان بطرس خدم طائفته يوما خدمة خاصة فما ذلك الا لانه كان يؤمن بان مجد وطنه من مجد ابنائه الحقيقيين وعظمته لن تبرز الا بعودة القومية اليه وتلك تعيش فى هذا الدم المصري الاصيل .. دم الاقباط لا غيرهم .

قد تمر الاجيال وقد يسجل التاريخ الحوادث البارزة فى صفحاته عن مصر . وقد تنهض مصر يوما ما وتصلح ولكننا ابداً سنذكر دائما ولن

ننسى ابداً اننا كنا على أبواب مجد واصلاح وعهد جديد ففقدنا الرجل أو افقدناه .

ثم تبع الاستاذ ابرهيم محمود الورداني ما كتبه السطور التالية تقلها رغم ما فيها من صراحة :-

« وقد قامت ثورة بعض المسلمين فى ذلك الوقت اذ رأوا في اختيار قبطي لرآسة الوزراء جريمة لا تغتفر . وقد كان سير رونالد ستورس يقول لبعضهم لقد اتيحت الفرصة لكم لكي تثبتوا للعالم ان ما قيل عن تعصب المسلمين غير صحيح .

ولكن للاسف كانت احاديث ستورس لا تلاقي ما يستحق من الاعجاب حتى ان الاميرة نازلي عندما قيل لها ان الخديوي اختار قبطياً لرآسة الوزراء اغمى عليها . . وقد ابتدأت الفتن تحوم حول بطرس باشا ولكنه استمر في أعماله واصلاحاته لا يكترث ولكن شاء الحظ السيء أن يتهمه البعض بأنه آلة من آلات الحكم الانجليزي لانه مسيحي .

ومما يدل على شجاعة بطرس غالي باشا انه كانت تصله يومياً خطابات التهديد فيضغط عليها باصابعه ثم يضعها فى جيبه. وكان يسلمها لسير غورست ويقول له :

الحمد لله .. هذا الخطاب لا يحتاج الى رد . ان هذه الخطابات لا تهزني ولا تحركني .. لانني اعرف ان ليس عندهم الجرأة الكافية للاقدام على قتلي . ولكن القاتل اوتى هذه الجرأة مدفوعاً .

ياروح الفقيد العظيم .. يامن تعيش فى قلبي وتسكن فى اعماقي .. انى حائر ماذا اتكلم .. لقد غلب على الدمع فانعقد لسانى ووقف قلمي . من قلب عامر بالاخلاص تطويه الآلام اتقدم اليك بخشوع طالباً منك الغفران . وان كانوا قد اجرموا اليك والى أهلك وعشيرتك فانى وانا ذلك الشاب الذي نشأ منهم .. ها أنا أعود اليك ساكباً دموعي اعدك أمام ربى والهي بأنى سأظل مشيداً بذكرك فخوراً بك . لا لان شقيق امى هو الذي اغتالك ولا لانك كنت قبطي وأنا أحب الاقباط . بل لانك كنت أعظم مصري انتجته مصر الحديثة ؟

ابرهيم الورداني

خاتمة حياته : يوم ٢٠ فبراير سنة ١٩١٠ هو يوم من اشأم أيام مصر . اذ كان بطرس غالي باشا في وزارة الحقانية يزورها ويفتشها بصحبة وكيل الحقانية والنائب العام ثروت باشا . وفى الساعة الواحدة تقريباً من ظهر ذلك اليوم نزل بطرس باشا وفي معيته ثروت باشا وعندما وصلا الي الحديقة سلم عليه وحياه وانفرد بنفسه متجها الى عربته وبينما كان يهم بركوبها اذ سمع ثروت باشا صوت انطلاق خمس رصاصات متتابعة من مسدس من نوع البرونتج كان يحمله شخص مختبىء في الحديقة وسارع هو ومعه وكيل الحقانيه احمد فتحي زغلول باشا للحاق ببطرس باشا وتبعهما جميع موظفي الوزارة ليجداه مصابا بثلاثة رصاصات في رقبته والرابعة فى كتفه وأما الخامسة فأصابت جانبه الايمن . وسارع عبد الخالق ثروت

باشا الى الجاني ومعه ساعي أسمر اللون من خدم الوزارة فالقى الجاني على الارض وأوثق الساعي يديه بحبل وكان فتحي زغلول يفحص بطرس الملقى على الارض تتدفق الدماء من جراحه ثم قرروا جميعاً نقله فحمله فتحي زغلول وعبد الخالق ثروت وساعدهما بعض الموظفين الى غرفة بوزارة الحقانية واستدعى الدكتور نولون لاسعافه فى الحال فحضر من وزارة الداخلية على عجل وتبعه ميلتون وغيرهما من الاطباء وبعد أن اجريت الاسعافات الاولية للجريح نقل الى مستشفى ميلتون القريب من محل الحادثة .

ولما بلغ الخبر الى سمو الجناب العالي تلفونياً بسراي القبة كان وقعه عليه شديداً فأسرع بالمجيء الى سراي عابدين ومنها الى المستشفى . ولما رأى وزيره الاكبر فى هذه الحالة السيئة قبله وشجعه ولم يتمالك من البكاء . فقابل عطوفة بطرس باشا هذه العواطف الشريفة بالشكر مردداً كلمة (مرسي) بصوت منخفض .

انتشر خبر هذا المصاب العظيم فى طول البلاد وعرضها ونقل تلفونياً الى اوربا فوقعت حادثة اصابته وقعاً مراً في كل نفس تتألم وعلى كل وطني يدري عواقب الامور فهلعت القلوب وتكدرت الخواطر . وانزعجت الافكار وقامت القاهرة وجهات القطر تستفسر تليفونياً وتلغرافياً عن حقيقة الحادث . فاكتظ شارع الدواوين وما حول مستشفى ملتون بالقوم وكلهم فى حالة هياج وغضب حتى وافتهم الاخبار من الاطباء تطمينا

للخواطر المضطربة فنشروا من وقت الى آخر نشرة بحالته . وقد صدرت النشرة الاولى عند الساعة الرابعة مساء وهذا نصها :

عطوفة بطرس باشا غالي أصيب بعدة رصاصات أغلبها غير مهمة ولكن واحدة منها مرت بالتجويف الباطني وبخطره . لغاية الآن الحالة الطبية ولكن يجوز عمل عملية جراحية لعطوفته .

الدكتور ملتون الدكتور خياط

وقد زار عطوفته بالمستشفى كثير من كبار الامة وحكامها والامراء وفي طليعتهم صاحب الدولة البرنس محمد علي والبرنس حسين باشا كامل الذي آلمه كثيراً هذا المصاب الخطير . والسير الدون غورست الذي لازم عطوفة الوزير عند فراشه مدة طويلة .

لم ير الدكتور ملتون في بادىء الامر ضرورة التعجيل بالعملية حتى يقوي الجريح قليلا فيتحملها ولكن عند الساعة السادسة والنصف تقيأ الجريح دما وكان ذلك داعياً لاجراء العملية وفعلا عملت واستخرجت الرصاصة التي مرت بالتجويف الباطني .

وعند الساعة الثامنة والنصف مساء بينما كان الناس في انتظار نهو العملية واخراج الرصاصة الخامسة من جانب عطوفته ظهرت النشرة الثانية وهذا نصها .

قد عملت عملية جراحية لعطوفة بطرس باشا غالي واستخرجت الرصاصة التي مرت في الكبد والامعاء . وتحمل عطوفته العملية جيداً .

ملتون خياط

ولما انتشر خبر نجاح العملية ووجود الامل بتحسين الحالة وسلامة الوزير العظيم صرخ القوم من أعماق قلوبهم بالتضرع الى الله طالبين منه تعالى التعجيل بتمام شفاء هذا الوطني الكبير الذي لم ترى مصر في حياتها أقدر منه كفائة وأمانة واخلاصاً واقيمت الصلوات في الكنائس والجوامع توسلا للعزة الالهية بان يحفظ للامة رجلها الوحيد وعضدها الاكبر ويحقق الامال بشفائه .

٢١ فبراير سنة ١٩١٠ . بات القوم في قلق ولم يطمئن جانبهم الى مضجع حتى الفجر فاسرعوا الى المستشفى وكلهم آمال بتحسين حالة وزيرهم قرئت النشرة وعلم منها انه كان طيباً وفي حالة جيدة حتى الساعة العاشرة مساء ثم تغيرت الحاله وامضى ليلته في تهيج حتى الرابعة صباحاً فظل في سكون وهدوء الى أن أخذت قواه تضعف فلم هذا الخبر القلوب التي شاركت المريض في أوجاعه وآلامه . ومع ذلك كان الامل لازال موجوداً بشفائه وهذا ما كان يرطب الخواطر المضطرة قليلا .

ولبث القوم منتشرين حول المستشفى قلقين حتى شوهد الخديوي ينزل من عربته وحوله الوزراء وجمع من الاتباع والحاشية والسير غورست وكثير من الامراء والاعيان وكلهم يرجون له الشفاء . وهناك في حجرته التي يرقد فيها كان يجلس الخديوي في رهبة وسكون من أجل ذلك العظيم الراقد الذي لم ينل نظيراً له مثل هذا التنازل الكبير . كان يجلس في رهبة واحترام لذلك الراقد الذي كان تتنازع روحه الموت والحياة . وأخيراً

لما أحس بطرس ان دقائقه أصبحت معدودة تيقظ قليلا والتفت الى الخديوى الذي قال له : الست بخير ياعطوفة الباشا.

ـ انني بخير يامولاي . وما يؤلمنى جرحي كما يؤلمنى حزنك على .

وسكت قليلا كأنما كان يستجمع أفكاره ولكن حشرجة الموت قطعت سكوته وعندها نظر للخديوي ثانية فمد يده وتناول يد بطرس الذي قال له : « يعلم الله انى ما أردت غير الخير لبلادي »

ثم انتفض وتلوى وأخيراً استكن سكون الموت فلما أحس الخديوي الذي ذهل من هول المصاب ببرودة اليد التي يمسك بها انفلتت منه صرخة من أعماق قلبه وأجهش بالبكاء فولول البرنس حسين كامل باشا (السلطان حسين كامل) وبكى الجميع حتى علم جميع من بالدار المصاب العظيم من سماعهم لبكاء الامراء والوزراء والجناب العالي .

الاحتفال بتشييع الجنازة : ما لاح صباح يوم ٢٢ فبراير سنة ١٩١٠ حتي أخذت تتوافد الى الشوارع التى تقرر أن تسير فيها الجنازة حتى اكتظت بالالوف من أهالي العاصمة والاقاليم الذين وفدوا للاشتراك فى هذا المصاب الوطني العظيم . وفى منتصف الساعة الحادية عشر بدأ الموكب بالتحرك يتقدمه فصيلة من فرسان البوليس ثم رجال المدفعية الانكليزية ثم أورطة من المشاه الانكليزية تتقدمها موسيقاها مجللة بالسواد وكانت المدافع تطلق من القلعة أثناء ذلك وانضمت عند الاوبرا جميع الاورط البيادة للجيش المصري تتقدمها موسيقاها وهي تعزف بنغمات الحزن والجنود

منكسة السلاح ثم تلاميذ المدرسة الحربية ورجال المدفعية المصرية بموسيقاها ثم كبار ضباط الجيش المصري والبريطاني ورجال الدين لا يقل عددهم عن مائة ومندوبو الطوائف الروحية الاجنبية ثم قناصل الدول جميعهم خمسة أبسطة رحمة يحملها عشرة وزراء وعشرة من الوكلاء فالنعش على عربة مدفع مجللة بالعلم المصري ثم عشرة ضباط يحملون عشرة صناديق نياشين تحوي خمسة واربعين نيشاناً من الدرجة الاولى والامتياز وبعض نياشين الدرجة الثانية . وتبع ذلك أولاد الفقيد وأخيه فدولة محمد على باشا بالنيابة عن الخديوي والامير حسين كامل باشا وجميع رجال المعيه وكبار موظفي الحكومة وجميع نواب الجمعية التشريعية ومجلس شوري القوانين ورجال النيابة والمحاكم المختلطة ثم رجال الجمعيات القبطية وأهمها التوفيق والرابطة المسيحية والايمان والمحبة وثمرة التوفيق والمعارف والشبان المسيحية وكل منها يحمل علماً مجللا بالسواد معه طاقة ورد كبيرة ثم جمع من السياح ثم تلامذة المدارس بالقاهرة عالية وثانوية وابتدائية . وقد كان لاشتراك الامة والحكومة هذا الاشتراك الرائع دليلاقويا على ماتحمله النفوس لبطرس

ووصل هـــذا الموكب بعد سيره فى شوارع مناره بالمصابيح ومجللة بالسواد ومغطاه جدرانها وأعمدتها بالقماش الاسود حتى الكنيسة المرقسية ولكن لم يسمح بدخول الكنيسة سوى للامراء والوزراء وقناصل الدول ثم سار الموكب حيث دفن الفقيد العظيم في قبر اسرته في كنيسته المسماه باسمه الآن فى شارع الملكة نازلي .

ملاحظات على هامش الجناية : مما يحز في نفسي كمصري . وكمصري مخلص لوطنه أن رى كثيراً من الكتاب المتحيزين الغير منصفين . واذكر ان كثيرين اضربوا عن ذكر اسمه في كتب تاريخيه مهمـــة والقليلين ذكروه منهم ذو تاريخ مشوه . ولكن مما يثلج الصدر حقاً أن أجد بعض الابناء والاخوه يهبون للدفاع عن الرؤساء ولانصاف الزعماء وكان منهم الاستاذ ابرهيم محمود الورداني فما درى بكتابى هذا حتى أرسل الى كتابا كبيرا مطولا اقتص منه القليل رغم ان كل مافيه ذو قيمة كبيرة . قال الاستاذ عن الجريمة « ان الجريمة التى جناها الوردان ليست جنـاية اغتيال عادية لفرد عادي . بل انها كانت جناية مست في الصميم امة كامـلة كان لها أمل ورجاء فوأدتهم تلك الرصاصات الطائشة . انهـا كانت بدعة ابتدعها فاربج لها القطر وكان الوطن حتى حدوثها طاهراً منها فنبه الافكار الى فكرة الاغتيال السياسي حتى اننا نلاحظ حدوث حوادث كثيرة مثيلة بتلك الحادثة الشنيعة لم تكن تحدث قبل قتل بطرس غالي باشا »

ثم حكى فى كتابه كيف كان الورداني طالباً فاشلا يتنقل بين المدارس علـه يوفق فتتغلب غباوته حتى اضطر عمـــه الى ارساله لاوربا علـه ينصلح بوجوده في وسط جيد فاختـار أحط الطبقات يعاشرهـا . مختاراً دراسة الصيدلية ستاراً له . فزادت غـبرة الجهل ظلام الوحشية اذ انتقلت اليـه عدوى المباديء الفوضويه وكان هذا دوره الاول في الحياة أما دوره الثاني فيبتديء بعودته بلا شهادة الى مصر فاعتمد على الكـذب فى دفع المعره

عن نفسه وادعى انه حصل على دبلوم فطلبه منه عمه فأخذ يراوغ حتى تمت الجناية وكان عمه قد انصرف عنه غاضباً متوعداً حارماً اياه من المال الذي يفتح به اجزاخانة. وأخيراً استرضاه قليلا بوساطة الاصدقاء ولكن تجارته كسدت ففارقه عماله لبوار عمله وتراكمت ديونه فزاد بؤسه وكان قد مد يده الى مال أمانة لديه لاحدى الجمعيات وطالبوه به فسقط في هاوية اليأس حتى فكر فى أن يختم حياته « بعمل مجيد » كما قال هو. وزاد به غروره حتى كان يعتقد استطاعته أن يحل أعقد المشكلات السياسية والتف به جماعة الحزب الوطنى فأغروه ببطرس وبالفتك به ليكون فى قتله هذا « العمل الجليل » الذي يبغيه بعد أن زينوا له البطولة.

غير اننى أذكر بعض ما كتبه فى سطور قليلة مبتعداً عن التطويل عن المحاكمة وكيف تمت: سجل المتهم على نفسه باقراره في التحقيق أن القتل كان مع سبق الاصرار.

حاول محاميه أن يخلصه بعدة طرق فادعى أولا انه مخبول وان خباله وراثى وهذا الامر مكذوب فعمه ظيفل باشا وكل عائلته فى أتم حالة من الصحة.

ثم ادعى محاميه انه غير مسئول عن الجناية فالرصاصات الخمسة لم تكن قاتلة فرد عليه الاطباء بأن كل منها كانت تكفى للقتل وقالوا عنه انه كان تحت تأثير غريب عنه واثبتوا ذلك بعلم النفس وذكروا انه ليلة الجريمة قابل في الطريق عضوين من الحزب الوطنى استصحباه للدكتور حافظ عفيفي

عضو الحزب. وانه فى الواقع ليس هو المجرم. بل المجرم من دفعه للاجرام

وقال عبد الخالق ثروت باشا النائب العمومى وقتها فى معرض الاتهام « انه اثكل مصر رجلا من خير أبنائها . جمع بين العلم والتجربة فقبرت معه هذه الصفات العالية »

ومما يذكر ان الهلباوي تقدم للدفاع عنه فصرخ الوردانى وقـــال لا أقبل أن يدافع عنى بطل دنشواي . ولـكنه أخيراً قبل حتى الهلباوي لم يجسر أن يتهم بطرس غالي باي اتهام بل قال عنه بالنص (كان منزله كعبه لشيوخ المسلمين كما كان للاقباط) .

بعض أقوال الصحف : (البورص اجبسيان) الجميع يعترفون ان بطرس قتل لانه مسيحي . انه سار فى طريق الحرية وكان القتل يترقبـه من بداية الطريق . (البردجريه) التعصب موجود بشكل فظيع . الحزب الوطنى يعد بطرس أعد أعداء المسلمين . مسئولية الجريمة تقع على انجلترا لانها أعطته الحرية لامة لم تنضج . كان يجيكم الصحف المتطرفة في مصر .

صورة المؤلف سنة ١٩٣٩

صوت المؤلف الى القارئ

جرى عرف المؤلفين كلهم أو جلهم أن يتكلوا بوضع مقدمات كتبهم لاصدقائهم من الكبار المؤلفين وعند نهاية طبع الكتاب يدور المؤلف يجمع التقاريظ لكتابه ليسجلها فيه . ولكني أثور اليوم على هذا الوضع. فلما أطلب تقاريظ من اصدقائي كبار الكتاب. لماذا أثقل على صديق فاكلفه أن يقرظ وأن يمدح ؟. لما لا أكون شجاعاً فأعرض على قرائي الكتاب بكل صراحة وبكل جرأة وأنتظر حكمهم. انني انتظر ان المسألة بيني وبينهم هي مسألة (عائلية) أو (شبه عائلية) فيها كل مافي الجو العائلي من تسامح واعفاء وصفح وغفران ..

زعيم الادب الرفيع الاستاذ الكبير
« سلامه موسى »

ان التأليف التاريخي عمل جبار لايستهان به . وفرق عظيم بينه وبين التهويش بالمقالات العصار أو القصص النجاح في القصة مضمون أما هنا فعسير نبتت الفكرة فكتبت وكتبت. ومضت أيام وليالي . سهرت الليالي ووصلت بها الايام حتى اتممت الكتاب وكان

ان تشجعت وطبعت . ولكن كان قبل الطبع عقبات وعقبات . قد تكون سر المهنة وقد تكون من أهم الاسرار . ولكن كانت أهم النقط التي افكر فيها كم ألف أطبع وكم اوزع وبكم أبيع . وأخيراً (استشرت جيبي) فطبعت الفاً . وتركت التوزيع للمطابع والمكاتب والاصدقاء . واما الثمن فجعلته معتدلا اذ انى دفعت كثيراً ونظرة إلى نوع الورق والجلده ونظافه الطبع تكفى للتقدير . وجازفت بالالف اعتمادا على مجرد الحظ . ارأيت كيف يغامر المؤلفون فى مصر معتمدين على القضاء والقدر . وعلى المزاج الحكومي الذى اذا شاء (صهين) واذا شاء غدر . انى افضل ان تمر المسوده على الجهه المختصه قبل الطبع . حتى لايصاب المؤلف فى ذهنه وفي ماله واتاجه .

اما الزملاء والاصدقاء فبارك الله فيهم جميعا . لقد اكرموا كتابي الاكرام كله . ولقد راعني انى جوملت اكثر مما استحق . شرفنى الاستاذ الكبير سلامه موسى باهدائى صورته مع المقدمه . وشرفني الاستاذ توفيق حبيب الصحافي العجوز بكثير من المراجع واسمعني الكثير من شيق احاديثه وكلف نفسه مشقة البحث عن كثير من الصور واهدانى صورته في آخر زياراته لى . وغمرنى الاستاذ ملك بك حنا عبيد ناظر المدارس المرقسيه بكرمه فأشار الى مراجع الجبرال يعقوب ووعدنى بقرائته وتصحيحه . اما الاستاذ ابراهيم محمود الوردانى فقد ادهشني عشرون صفحة من الحجم الكبير ارسلها الى كلها معلومات فذه وطليه اعتذر عن

نشرها ولمن يبغى قرائتها اضعها تحت تصرفه او ربما اطبعها فى ملزمه خاصة لاهميتها .

اما اصدقائى الذين طلبوا عشرات النسخ ليوزعوها . فسأقيم لهم حفله تكريم انشاء الله (عندما اقبض الثمن)

انى انحنى امام النقد اجلالا واحـتراما واشعر فى اعماق نفسى انني مدين للناقدين اكثر من المقرظين . ولـكنى ها انا انقد نفسى بنفسى قبل ان ينقـدنى غيرى . انى لم يبلغ بى الغرور لاقول انى جدير باخـراج كتاب ضخم مثل هذا يحوى فكرة ضخمه مثل هـذه . ولـكنى حـاولت فعلنى نجحت بعض النجاح . لأن هذا فن فى السماء وانا لازال في الارض لقد حاولت ان اجرب وان اطرق الباب فقط . وقنعت بقسطى المتواضع من النجاح . فلينظر القارىء والناقد خطوتى الثانية . . والنقد الثانى اوجهه لنفسى ان لغتى تحتاج لكثير من « الرتوش » . استغفر الله . بل تحتاج « للترميم » . ولـكنى ادافع عن نفسى بانى اقدم كتابى للشعب . لانى كتبته للشعب ومن اجل الشعب . فلا يهمنى ان يغضب المجمع اللغوى ويغضب معه سيبويه والزمخشري والقلقشندى

والنقد الثـالث . قد يقول قارىء انى جرىء اقتحم هذه المواضـيع بكثير من الجرأة ولـكن الم تكن هذه المواضيع مكـتوبه من قبل . اقرأوا كتب الرافعى والمسألة المصرية . والسيد عمر مكـرم لفريد ابو حديد . وسعد زغلول للعقاد وتـاريخ الامه القبطيه لمـدام بوتشر . وكثير من

المراجع التى سجلتها فى الهوامش فتجدون فيها اسلوبا اجرىء وتحديا صريحا .

واخيرا أتوجه الى جمهور القراء بالشكر فهم ثروتى وهم الذين اعطوني النجاح في اخراج كتابى . فلعلنى ارضيهم . ولعلنى اوفق في كتابى الثانى فارضيهم والسلام ؟

خيرى حبشى

تم طبع الكتاب

قدمت هـــذا الكتاب

(وتقـــدم)

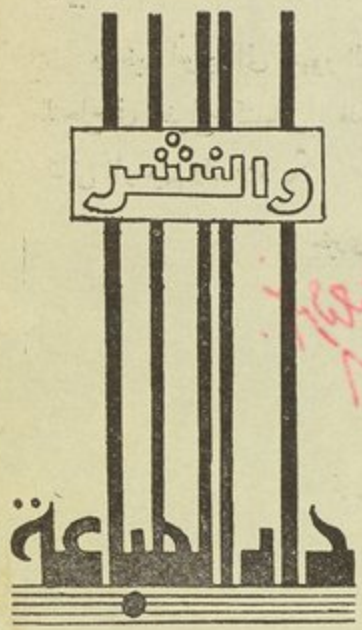

البابا داود

تأليف

حبشي خيري

(كتاب الحياة والقوة والطهارة)

يشترك فى تحـــريره كبار الكتاب والمـــؤلفين

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

THE ABU SHADI
MEMORIAL LIBRARY

PRESENTED BY

CHARLES A. DANA, JR. '37
H. H. PRINCE SADRUDDIN AGA KHAN
COUNCIL ON ISLAMIC AFFAIRS

Princeton University Library
32101 072535535